محمد ابراهيم مبروك

عطشى لماء البحر

قصص

دراسة : ابراهيم فتحي



محمد ابراهيم مبروك

عطشى لماء البحر
وقصص أخرى

دراسة ابراهيم فتحي

مطبوعات النديم

الطبعة الاولى
١٩٨٣

اهـــــداء

((أيها العصر العظيم : ها نحن ذا ، فلترتق الى مصاف قلب الانسان)) .

* سان جون بيرس *

ورداتى البرية هـــــذه

الى من أحملها ؟

أ الى ذوى الفقراء ؟

الفقراء الذين اقصدهم : اشرف واعظم من عرفت . هؤلاء الذين يحولون بتحملهم العظيم بينك وبين الشفقـــة عليهم ، ويجبرونك بعطائهم الاعظم والذى ابدا ما قل او توقف على احترامهم لما تحمله ارواحهم من نبل مفعم بروح سيادة كامنة ، تتلمس وعيها بذاتها فى عالم كانت دائما كلما حملت احجاره على اكتافها وبنته : يخذلها وتفقده .

وتندفع الان بتصميم نهائى صوبه ، عبر الطريق الذى ينصب لهم فيه الاعداء كل انواع الالغام والشراك .

ولانه ما من طريق آخر يفضى بهم الى المستقبل فانهم يحملون أعباء حياتهم على نصال ارواحهم ويتلمســـونه : طريقهم الوحيد ، بحرص وخفة النمر ، وقوة اندفاع جسد التاريخ الحى .

ومنذ وعيت اصرارهم على تحقيق هــذا الحلم ، ما فقدت ايمانى بأن انتصارهم وكسبهم لقضية سيادتهم الفعلية مسألة زمن . فهل سيأخذ ذوى السادة الفقراء ورداتى البرية هـــذه ؟

ابـــدا .

فأحزانهم الثقيلة والتى أدرك الان كم هى مغايرة لاحزانى القديمة هذه لا يمكن الا ان تخجلنى وتجعلهم يتطلعون الى هــذه الورود بامتنان شاحب ، كابتسامة حيية تطفر فى قلب مأســاة .

اسيلتقطها اذن اللاهثون دائما طمعا فى سكنى الادوار العليا فى بناء يتداعى بهم الان ويشرع فى الانهيار ؟

فلتتمزق وتتبدد ورودى كطيور تهج خيرمن ان يحبسونها بين حوائط ديكوراتهم المعدة بعناية كصناديق المومياوات ، حتى لا أعود لمواجهة اندهاشهم : « اية طرق تلك التى سرت فيها لتحصل على ورداتك هذه ؟ »

وسأضطر أن أكرر بحماس أقل : « لقد أتيت بها من الجحيم حيث كنت أنشد الحقيقة التى لم يدلنى عليها احد . لكننى لم ألق أنا الفتى الغرسوى الوردات البرية والحقيقية هذه فما الذى افعله بها ؟

عشرة سنوات داهمتنى بليلها كعشرة قطعـــان من الخيول قطعت على الطريق ، لكننى رأيتكم من خلال ترابها المثار فأحببتكم ، وها أنا أقطع الطريق اليكم : قاذفا بورودى فى صحون دوركم الفقيرة ، فانتموا ما اخترت ، و (على

هذه الصخرة أبنى) دائرا حولكم داخلا فيكم ، طالعا بينكم، حاملا مع من تضرب جذورى فى أرضهم وسواعدى معهم بذورا وفيرة لفاكهة وقمح واردية وورود مواسمنا المقبلة : فاكهة وقمحا واردية وورودا — لا ورودا برية — فى تلك الحقول والحدائق التى تنضج الان بالشمس التى تشـــرق من قلبنا ، كما تندفع متقدة من ظلمة الرحم الذى ضاق عليها، راس وليدنا الصارخ طالبا للحياة ، فيتقدم من أرجاء هذا الجسد الذى سيرق شحوبه حتى يشتعل دمنا الطلق الذى سيتصاعد ايقاعه الحى ، كقطار التاريخ ، كيما يخلصـــه والوليد ، من شراك الموت المنصوبة على محطات ازمنـــة الانتظار ، متوجا به حياتنا كعذراء أرضية تحتضن بقـــوة جســـد مخلصها الفتى الذى سيتوج جدائلها بفرح معقـــود كشمس لا تغرب !

م. ا. مبروك

نزف صَوت صَمِت نصْفَ طائر

« حاجز من الريح
كى يسند حـزنى
فى هـذا المسـاء »
انجارتى

قالوا احك بصوت مسموع ، فتدفقت تغرق وجهى بسمة اسف لكلينا . ارهفوا الاذان علهم يتلقفون الكلمات وهى ترفرف ساقطة ولم تزل ساخنة قبل أن تمـوت . ورأيت الجباه وموجات التقطيب تنتشر فوقها فابتسمت والمرارة فى شفتى : الم أقل ان طيورى لم تعد تملك الا جناحا واحدا ؟!. ظللت اراهم وهم يعبرون متطلعين الى عينى وما زالوا يرون ملامحى القديمة . . ولما لم يروا داخل حاجزى الزجاجى شيئا اداروا وجوههم ناحية الطريق وواصلوا الخوض فيـه ، وعيونهم أسطح بحيرات جامدة لم تهتز . وفى عاصفة الظلمة التى خلفتهم تذكرت يوم كان لى لسان بأكمله ، يوم كفوا عن السير فى ليل الخميس واسرعت الخطوات لتنقطع ويمسى الطريق خاليا . وتتبعتهم ليلتهـا حتى أيقظتهم من خميس زوجاتهم على الغربة وأنا أسقطها بين المرتفعات التى نامت فى المنخفضات ، تصلبوا فى الفراش واللهاث يتباطأ فى فـزع ووجوههم الى أعلى يحدقون فى أسقف الضوء الاحمر ، وليس ثمة قدرة على تغيير الوضع ، والمرتفعات تبرد وتكتشف أنها عارية والانهار الدافئة التى كانت تجرى فى القمم تتجمـد وأنفاس الزوجات تصفعهم بالصقيع والمنخفضات أحضـان كانت تتدفأ مع المرتفعات فى ذاتها ، ولما صحت على ابتعاد

المرتفعات خبت النار تحت نهطال الصقيع الذى نجمد حادا فى القاع . وسيظل يملا الفجوات بلون ظلال الغربة لانك فعلتها واصبحت غريبة عنى .

لكن الذى يدهمنى ويكاد يفتك بى أن يجنساحنى فى لحظات غامضة احساس بأن الغربة قد عادت غريبة . وأقول ربما لانه ليس حلما .. فقد كنت أتنفس بكل جسدى واعب الحب من رحابة الزرقة وسهول العناق نمتد تتنسلاقى فى المنخفضات المتنفضة بالشوق وتغنى للعشب الصغير :

ــ احضرت اللعبة لامل ؟

ــ ها هى يا حبيبتى . وصحت عليه : « أمل . تعالى » وصرخ املى :

« هاتها يا أبى » .

واستدار لينحنى محتضنا قاع المقعد ومدليا ساقيه ليهبط .

اخذت أحل الخيط وأرفعه من حول صندوق اللعبة وانت منحنية خلفى وانفاسك كانت حتى تلك اللحظة تدفىء عنقى . التقطت من جوار لعبة أمل هديتى لك واختطفت أمل لعبته .

عيد سعيد يا حبيبتى .

أخذت القلب الذهبى وملامحك الحلوة غامضة وفتحته فاذا بالغموض يكف بعد أن يرق فى ملامحك قوسا دهشة فوجئنا بأننا معا فى الصورة داخل اطار القلب : ظل واحد

يرتفع براسين وانت اقصر منى ، راسك يتطلع نحوى عاليا راميا بجداول شعرك للوراء لكى ترتقى فى عينى المنحنيتين عليك ، وخلفنا يلمع فضيا نهر النيمز ، وعيناك متعلقتان بى كحمامة وديعة تتشبث بغصن يشب ويحملك من وجـــــه العاصفة . ولا ادرى حتى هذه اللحظة كيف حدث ان لاحظت التغيير فى عينيك . من اول ما عرفتك وانا ارى واقسم بأن لون عينيك أزرق ، اما لحظتها فلقد رايت الطين يبرز ويرانى فيغوص خافيا نفسه تحت السطح الازرق ، وسمعتك :

ــ آسفة جدا يا حبيبى .. لقد فاتنى أن احضر لك هدية ، ولست أدرى كيف نسيت أن اليوم ذكرى زواجنا .

ضحكت لكى اهون عليك الامر قبل ان تستقر بقعة الطين الغريبة فى داخلى حتى انقذك :

ــ أوه ، كيف تقولين هذا .. وهل نسيت امل ؟ !
وادار خديه الحمراوين وعيناه واسعتان صافيتان كسمائنا وصاح :

ــ انظر يا ابت كيف يغنى طائرى .. هل سـيظل يغنى هكذا دائما ؟ . وقلت له :

ــ « طبعا يا حبيبى ، سيظل يغنى هكذا دائمــا ».
والتفت اليه وانا أصوب السؤال وعينيك على : « اليس كذلك ؟ » واغرقتنى بضحك : فاختفى الطين تحت السطح .
وسمعتك ترددين سؤال أمل وتفقدينه براءته : « للابــد »
جوبهت بالسؤال ، فكيف سيغنى للابد طائر لن يظــل .
وانحنيت على أمل : « للابد يا حبيبى سيظل يغنى لك » .
وبصوت خافت قلت لك : « الطيور لا تحيا للابد ، ربمــا لانها لم تعرفه ابدا ، لكنها تظل على اية حال تغنى طـــوال أبدها حتى ينتهى فتكف عن الغناء » .

ورأيت عينيك مشتعلتين بالدهشة التى احترقت لحظة ان ادمت تأملهما ، فلم تعودا كما كانتا دائما فى عينى على شاطىء التيمز ، فنسيت ماذا نسيت فى القاع .

استمر الصوت يتصاعد بجوارى ، أكاد أشم فيه رائحة احتراق طيورى وهى تندفع لتسقط وريشها مسود فاحترق لطيورى واتعذب وارغب فى أن ينتهى كل ذلك لكنها لا تكف. وقلت للمغنية الاولى :

« اسكتى يا امرأة ! » . ولكنها لم تسكت لان يدى لم تمتد لتوقف الصوت ، ربما لانها أطاعت احساسا يجرنى بأن مواجهة موتانا أرحم بكثير من ألتحديق فى الاخر الذى يموت منا امامنا ، كما حدث أن حدقت فى الليل البعيد القابع حيث كنت نائما .. آخر مرة كنت فيها نائما بكاملى :

بوضوح أذكر أننى تقلبت فى الفراش ، فرفعت راسى كالعادة لاصغى الى تنفس نوم امل . سمعت السرير هادئا ، وسكون تام يصدر منه ، أدرت راسى فخيل لى أن الغرفة تتغير .. لم اكن اصدق أن التخيل سينصب بصوت عال هكذا ليفاجئنى ، عندما وجدت الظلمة تستحيل الى ملاءة سرير خالية ، واحسست بأننى لا أملك القدرة على ادارة راسى أو حتى التحديق بامعان الى جانبى فأصغيت أكثر فلم يرن فى أذنى سوى صوت قلبى الذى اخذ يتعالى حتى سمعته كموج أكاد أختنق فيه فقفزت من الفراش وانحنيت على امل فلم اجد امل تحت الغطاء انكفأت راجعا فتعثرت فى السرير . لم أتأوه لانه لم يكن ثمة وقت لا للتفكير ولا للتأوه فاندفعت ناحية الباب . ولا أدرى ماذا جعل جبهتى

نصطدم بحافته لاحس بها تنشرخ وتنغمس فى لهيب جعلنى اصطدم بكل شىء كأعمى يبحث عن القلب الذى كان يرى به فى عماه . واخذت عيناى تفران من قسوة اشتعال الغرف والشرفات الخالية والطرقات الغارقة فى الضوء حدقت ببصرى فى الطريق ، فنسيت اللهيب فى جبهتى لما رايته خاليا .. واذا كنت ، فلا بد انك انتهيت منه منذ زمن طويل .

واخذت كل المصابيح تنطفىء فى عينى ليشتعل فى راسى اللهب والعمى فتسمرت مكانى لكى أتلفت يدا علنىأعثر عليك ، لكننى لم أتعثر الا فى الليل الذى استغربته لما وجدته يفتقد سكون السواد ليعج بأضواء الصمت التى تعمى تماما ، وفوجئت بأقدامى يشتد صراخها فوق أرض الغرف ودرجات السلم وأرجاء الحديقة وهى تهرع مقتربة منك حتى تكاد أن تعثر عليك ثم تتوقف فجأة فى لحظة ما قبل أن تحتويك مصطدمة باللا شىء فيكف النداء الذى يتهاوى ساقطا مكانه مكوما بلا أمل فى النهوض .

من المذهل أننى أحس الان ، رغم اننا فى الليل ، بالاشعة الحارقة تنحدر فى عينى من ضحى النافذة ثم ظهيرة النافذة والدموع بعد ما تحول العرق الى ملح فى جفاف جرح جبهتى تتحول الى ملح يلهب جفنى ، وشفتاى اكتشفتا أن الكلام ليس سوى تعذيب ينتهى بالقتل فلم تفتحا فمهما بكلمة . وحاولت أن أثبت أن رجولتى تتحمل واواجه قسوة التحديق فى الشمس فلم تسمح لى برؤيتها . ولم ارفع كفى لاظلل عينى لان ما سأراه فى الظل هو ما أرفضه دائما . كنت أشتهى بكل ما تبقى من حطامى فى الرؤية لكنها لم تسمح . وحين مزقت غمضة عينى بتعمد مفاجىء فى مكان

جسديهما انهارت فى عينى الضيقتين تلال تراب الشمس ..
لسع مكان عينى وفشلت فى أن أبكيه طينا فانتزعت الريق من تحت لسانى كى أهدىء سعير الجفاف فى حلقى وهو لا يبتلع ما يواجهه . وتسرب صوت ضحكة امل فلم اصدق من الفرح لكنه شحب فجأة وابتعد الصوت وهى تجرى به متخفية بعتمة الظلال فاختنقت . اخذت أتلوى على ضلوع الوسادة بلا جدوى ، فكففت عن التلوى . كنت اظن أن التعب سيريحنى من المعاناة ، بالذات اذا كانت الضربة قد دمرت نصفك ، لكننى من مكان الضربة بدأت اسمعه ، غريبا على اذنى ما بسمعته فى داخلى من قبل ينطلق فى العواء من مكانه دونما قدرة على الابتعاد بالعواء ، ولا يكف عن الصراخ الذى فقد صوته لانه لا يملك القدرة على أن يواجه الصمت. والصوت ثقب ضيق حافته المستديرة فى حدة حواف الشفرات ، والكلمات قبل ان تخرج خارجى تواجه بشفرة الدائرة الضيقة وهى متقدة بوهج الشمس ، ويتعالى الصراخ من الطائر قبل ان يدفع براسه فى الثقب ليكتشف بعد الضربة انه فقد رأسه . وما يسمعونه فى الخارج ليس سوى دوى الصرخة المكتوم فى داخلى يرن فى جلدى قبل المرور ، وما يحملقون فيه لا يعدو المحاولة اليائسة للجناح الواحد . وما يشاهدونه بوضوح هو طيورى بعد أن مرت بعنقها خلال دائرة المقصلة . وكل بقعة دم نقط عديدة متباعدة تنز وتلمع وتنمو وتتصل مكونة نصف طائر دموى يحملق دون أن تطرف عينيه كما لو فقدت قدرتها على أن تتألم فظلت شاخصة مشدودة الجفن تحملق فيما لا جدوى من أدامة التفكير فيه لان هذا كله يبدو أنه سوف لا ينتهى .. لكننى رغبت للخطة ودومت بى الرغبة :

وصلت حيث كففت عن الصعود ، محنيا رأسى بالرغبة ويداى تقبضان على حافة السور القصير المحيط بالسطح ،

والارض شريط عميق اضيق من جسدى رأيتها فحدقت فيها بأسف . حملت ناظرى وشفتى مزمومتين فى قلب السماء الحجرى . تأكدت من اللا جدوى مادامت السماء لم تعد تنبض . ورايت السخف الذى اخذ ينشع ويجناح الانساع الرهيب مبتلعا كل شيء . مظلّم يعج بالنجوم الميتة . وضجيج الصمت يجرى فى عروق اصابعى موجات تغلى تصطدم بالحاجز فترتد بذعر لابد وانه وجد منذ الميلاد معها ، مهزومة المرة تلو المرة ، والقلب لا يكف عن ضج الامواج الضائقة بالمعاناة ، وجدوى أن نظل نتأرجح دون توقف مع صبر البحر اليائس ، والموج حركة ميته ، واصطدام الميت بالميت يحدث صوتا أكثر وجودا منه الصمت .

وسوف تنشر جرائد الصباح الخبر فى الصفحة الاولى، وبعدها يطوون الصحف لتستحيل الى عصى قصيرة من الورق الملوث بعرق أصابعهم على حبر الطباعة . والخبر الذى غامرت بوجودى لكى يوجد حتى تفاجىء به قد طمس هو الاخر فضحكت . أخذت ابتلع ريقى المر عندما ووجهت بأنه قد يحدث كل شيء وانت فى مكانك الغامض لا أدرى أين من هذه الكرة ، ولا أستبعد أن تكونى على فخذيه لان فخذى اللذين عبرت بك البحر عليهما قد تلاشيا ، ويحدث كل شيء ، وسيان أن يحدث فى ضجة أم فى صمت طالما أن الزمن لازال يملك محونا ، ولم تعرفى بعد حتى أننى لم أعد موجودا فلا داعى اذن للاختفاء بالطفل من كائن لم يعد يستطيع تعقبك والبحث عنك لانه ببساطة لا يستطيع أن ينتفض فى الكفن ويزيل اى حجر مثبت فى المقبرة بعظام الاصابع الخمس لان عظام الرسغ لن تحملها عظمة الذراع ربما لاننى مت أو فقدت الرغبة فى أن أطارد حبا مات فى قلب يملكه الان أعداء . احسست بالبرد فعدت للفراش وحدى لكننى لما

جعلت اشم مكان خصلات شعرك ومكان راسه الصغير احسست بأننى لست فقط وحدى ، بل عدت أرتعد وأحس بأعضائى الساخنة ترتجف لاننى عدت مبنورا .

ــ أدخل . الباب مفتوح . ضع الزجاجات هنا . هات اللّعبة ، شد الباب وراءك .

تصورى ان غرفتنا هذه الليلة بلا مزلاج ! آه لو عرفوا ! طول عامين وهم يرون الباب موصدا لاننى وعدت بذلك ، ومن عامين وانا انتظر أن تأتى وأسمع فى تشف صوت باطن كفك يدق الباب مستجديا فلا أتحرك وتنادين وأسمع صوتك فلا أرد واسمع جسدك كله يهز الباب وجبينك ينشق ووراءه تقترب نداءاتهم وتوسلاتهم فلا ازيد عن ملء الكاس من جديد ابتلعه جرعة واحدة ثم امسك بالكأس الفارغة والضجيج يتعالى متوسلا وتوسلك لابد ان يرفرف فوقهم جميعا ، مظهرا نفسه ، ومنكسا حتى احس بأننى لا أحس حتى بأننى أزدريه بل يتدلى كسروال العاهرة فأقذف الباب بالكأس صارخا فوق ضجة الاستجداء :

ــ لا .

لكنى اليلة رفعت المزلاج . وفتحت النوافذ كلها لكى ترى الضوء من بعيد لانك آتية فأنت لا يمكن أن تنسى أننا أبحرنا وودعنا التيمز فى مثل هذه الليلة . تصورى انه حتى درجات السلم ساكنة أمام الباب كما لو أنها تتسمع صوت خطواتكما وعقربا الساعة جديدان هذه الليلة بلا تراب .. يتحركان كجناحين يرغبان فى أن يرتفعا لينطبق طرفاهما كطائر يحلم بأن ينطلق معتليا ذروة الزرقة ويضم جناحيه كحربة مشرعة فى وجه الزمن الذى يصر على أن يأتى دون أن تأتى ، ويكف الطائر عن عبث الرفيف فى الاجواء الضحله



ليثبت بالذروة قادرا ومرتكزا على داخله فقط دونما سقوط لكن لماذا قلت يرغبان والاعداد واضحة ؟ ! .

صدقيني لا أعرف كيف سيحدث أن انتبه فى الظلمة على وقع الخطى وهى ننسل عائدة ، والمسافات بين قدميك تولد وتموت ، وقدما الطفل ، ويدك تقبض على كفه الصغير نهرعان بالحذاء الذى اشتريته له بحجم قدميه اللنين كنت لا اتمالك نفسى من الضحك كلما امسكت بهما بين اصابعى لادغدغهما متصورا انهما قدمى وقد عادتا فجأة صغيرتين ، اذ انه يحاول بعناد الطفل أن يكون بقدمين كقدمى لكنهما ضئيلتان الى حد مضحك :

قدما رجل هاتان يا أمل ؟ ! .

يخيل لى اننى أسمع دقاتها الصغيرة والمسافات بينهما لا تكاد تولد حتى تموت ، بل أكاد احس بالسير الذى انهكه ينهك جسدى ، وأعضاءه اللينة ولحمه الطرى يشتعل ، ومع ذلك لم تنفرج شفتاه الشاحبتان طوال الطريق ليشكو لك : « اننى تعبت » ويظل يفكر بعينيه الواسعتين فى ظلمة سور الشجر الاخضر التى ستتلاشى من أمامه لانحنى عليه واختطف جسده الضئيل من فوق الارض وأطوى عليه صدرى الذى كاد ينبت فيه الجدب وأظل أرتوى منه وانا أقبله وأتحسس بوجنتى تفاحتيه وأضغطهما بشفتى طويلا لكى أصدق ما ظللت استحيل تصديقه . والغريب أن ذلك يوجد الان كمستحيل لا شك فيه مع أن ما حدث قبل عامين وهو ما أحياه الان كما يحيا الموتى الموت دون شك كان يبدو لى مستحيلا كاستحالة رؤيتى وانا حى للحظات موتى التى لم اخضها حتى الان ، وان كنت مشحونا بتوقع لوقع غريب .

— قلت لك لا نغلق باب الحديقة حتى لو طلع الفجر . دعها مضاءة . ارفع الزجاجات الفارغة أولا ثم شد الباب وراءك . قلت شد الباب .

أصبح غريبا جدا هذا الرجل . لانه سمعهم يقولون ذلك لا يكف عن النظر برثاء مسرحى الى الزجاجات الفارغه كلما رآنى . يقول لى حرام .. ستقتل نفسك . لابد انهم رددوا أمامه ذلك ايضا . انيس من السخرية ان يحسبو أن الخمر هى التى ستقضى على !

انني اراهن على صندق باكمله ، أن يقف واحد منهم فى مكانى هكذا : عاريا الا من عريه ، متوقعا الصفعات التى لن تهبط على جانبى وجهه فقط ، بل يتلقاها كما حدث ذلك دائما بطول جسده الذى ينكمش خجلا من انه يصفع بينما هو عار .. آه .. أن نصفع ونحن نرتدى اننسنا أمر يجعلنا نقهقه على الذى وجه الصفعة . لانه فى اللحظة التى تكاد راحته أن تعصف بنا يجدنا فوق راسه ننفجر بالضحك وهو منكفىء على الارض ، مصفوع بداخله لكن أن اقف عاريا طوال عامين وسط عواصف الصفع هكذا ، شىء يجعلنى أوغل فى التحمل اكثر مما لم اكن أتصور قبل أن تهوى صفعتك الاولى . قبل أن تصفعنى فأسمعها فقط لان الاحاسيس صفعت هى الاخرى فلم احس بالصفعة، فجأة هوت واختنقت بالسخط حتى استحلت الى اصابع مشدودة لقبضة أحست بالصفعة فى جسد تنتمى اليه فارتفعت وليلتها .. آه .. أكاد أحس بوقع كل ما حدث يتحرك ثقيلا ، قاسيا بين حوائط رأسى :

ارتديت ملابسى برغم أننى لم أكن حتى تلك اللحظة سوى عار فى ملابس ، وفى الطريق أخذت أحس بضآلتى،

مبان يتحـــرك على الارض . وقامتى لم تكن ابدا اطول كما كنت ارغب . توقفت لاخـــذ سيارة حتى الحقل لكن احساسى بأننى عار تحت الملابس جعلنى احس بأننى ساختنق بسقف السيارة .

كانت ثمة رغبة نائمة فى العرى كعاصفة يمكنهـــا أن تغرق كل الجزر التى جئت منها لو تأكدت انك هنـــاك . ولاننى لا اعرف حتى الان أين أنت . فقد كان ذلك ما جعل الرغبة الملونة مازالت لهذه اللحظة اسمعها تزمجر عاضة أسوار جسدى الضيقة. غذذت السير بطيئا . لافا العاصفة بمعطف اســـود بلون ما استحال اليـــه وجهى الاخـــير الذى لم تريه .. والذى تلاشى كل شىء فيه ماعدا الجفنين متهدلين بالليالى الميتة .

جعلت أتأمل المدينة بعد ان رفعت رأسى قســـرا لاننى لم أصفعك بعد ، ولشد ما وجدت المبانى الحجـــرية عالية . والاضواء الملونة فوقها ترتفع بوميضها فى الليل كمستحيل يتألق أمام عينى المهتزتين من يوم ما فقدنا الكائن الذى كان يشدهما فتثبتان عنده فى داخلى . ضيقت جفنى لاغلف انتصارها بنظرة تتوعدها بأننى سأريها عند عودتى أن الذى صنعها إنسان ، وأن الكبرياء الذى تسخرين به منى أنا الذى صنعته . وأن الانسان ، كالعادة ، سيظل قزما طالما هو يبنى خارج نفسه .

وهبطت بناظرى الى السائرين بقامات تخجل منقصرها الى جوار علو المبانى فى أيدى النساء ، وامتلأت احساسا بأنهم اقزام ، فأسرعت هاربا منهم .

غصت فى بحر الناس الذين جاءوا لينتصروا فأحسست

بالانتعاش . والاضواء تتنفس فى الاسقف ، وتنبض فى قلب القاعة فتتوهج فى وجه الحوائط والقاعة تضج خلفى بالمقاعد الممتلئة عن آخرها .. حتي الهواء يبدو معلقا بدخان السجائر المتوتر بالشوق المشدود فى الصمت الذى سقط فجاة . ثم فى الهمسات وآلات التصوير بالسواد اللامع والفلاش المنتظر بعدما أطفئت الانوار فأصبح كل كائن فى القاعة عينا واحدة تستعد للاشتعال لكى تسجل صورة الصفعة . واستحال الصمت الى سور مصمت يحيط القاعة ، وتلك كانت المرة الاخيرة التى كان الصمت فيها صمتا كالذى كنا نعرفه فى القرية : بلا لون ولا ضجة . سوى دقات القلب التى تنسحب من تحت الاسوار لكى تتنفس فقط .

وتحت وقع النغمة الاولى انهار اول حجر من السور . وسمعت مع تتالى وقع النغمات تتالى صوت انهياره تماما كاشفا عن عالم لم يحدث سوى مرة واحدة فى حياتى ان رأينه . ربما لانه غريب . فلم يستطع أن يظل بعد هذه الزيارة فى مدينتى حتى لا يموت اذا ننفس هواءها الذى نتنفسه الان لحظتها ، سمعت موجات اللحن تخطو قائمة تحت شلال الضوء الذى اشتعل حولك فى البعيد حيث لمحت فوق قمم الموج المضيئة نقطتين قاتمتين ، وأخذت الامواج تأتى وتكبر ، والنقطتان تفقدان بالتدريج حدة العتمة ، وافاجأ بك فوق الموج ، واقسم اننى عرفت أنه وجهك على الرغم من انه لم يكن الوجه الذى عشقته ، وعلى الرغم من أن وجهه كان فى ظل وجهك الا أننى رأيته كما لو كنت اتحسس ملامحه الدافئة واصابعى تراها بوضوح وتنزلق مداعبة خصلات شعره الشمسية اللون رغم الليل والذى ما زلت لا اصدق نفسى فيه حتى الان اننى لم ار تحتكما زورقا ، بل لازلت ارى بوضوح أصابع قدمى كل

منكما والضوء يغسلهما فيلمعان بالمـــاء فوق قمم المـــوج ويأتيان .

ظللت أحيطك بحدقتى واسمع الصوت الذى يحتـــرق مخلصا ليصدق ، لم اكن اصغى تماما فقد كان التحديق فى ذاته اصغاء اسمع من خلاله قدومك والزمن سلاسل تتحطم حولك وانت آتية ، ومازلت استسلم للذهول كلما غصت فى التذكر لاعثر فى وسط اللحن على الصـــوت الذى انبثق ، غامضا كالميلاد ، صـــغيرا مفضضا ، صـــاعدا ومواصـــل الصعود ، مسمعا ورافعا أمام وجهك هامة من الكبرياء ، الحافل بالملامح المتألقة بقوة حتى ان عينيك اصبحا لا تطرفان بل ساكنتان تتعذبان بالرؤية فقط ، والطفل فى ظل وجهك يحدق فيما يراه دونما بكاء ، يصطدم فقط بالعالم الذى يبدأ فى تحطيمه ، والموج يأتى والصوت يتناثر صانعا بحـــيرات نقية على قدر أفواه الطيور الصغيرة المدببة التى اخـــذت مسحورا احس برفيف اجنحتها يصـــحو وينطلق صـــوب الشطآن الخضراء من داخلى حاطا على البحيرات ثم طائرا ليحط معانقا ينبوع الصوت فى شفتيها . وقمت اخيرا بعدما ارتويت بالفرح معها لاستقبل الموجات الاتية بالضوء حتى عدت قريبة جدا ، قصيرة امامى ، ترتعين فى عينى ، وهـــو نائم بلا ذعر تحت وجهك ، وتلاشى الاصغاء فأصبحت أراك فقط والموجات خلفك حتى تعطيها لشفتى فقفزت من مقعدى لاختطفك من فوق قمم الموج واختبىء بك منهم فى فراشنا ، لكن رعدا من التصفيق انطلق خلفى كسياط بطول الظهـــر فتذكرت فجأة اننى جئت لاصفعك امامهم . وانهم يصفقون الان لانهم راوك فجأة بعد ان هربت ويئست منك واصبحت امامى فانهرت مشدودا بسياطهم الى جوف المقعد . ولم أعد املك الا ان انظر فى عينيك وابكى من اجلك فى صمت والموج

يندافع أنيا فلا يجعلك ذلك قادرة على الفرار من امامى ومن رغبتهمفى صفعك وعدت ارى عينيك تهتزان فى امل كحمامة نهر التيمز . لكن ساعدى مصلوبان على ذراعى المقعد . وثقلت راحتى عندما عدت اسمع الكلمات : وعود .. وعود .. وعود .. فلماذا وعدت . ونحن فى الشرق نظل نعبد الله ونموت ونحن نعبده ايضا لمجرد اننا قطعنا ونحن صغار وعدا بذلك !! . ازاء صمتى لم تفعلى اكثر من ان غرست فى عينى شعر راسك المنكس فلم أملك أن أتحرك . ظللت مصلوبا على ظهر مقعدى أتامل الملامح وأطحن الرؤية للملامح المثقلة بالغربة . وأحفر بحثا عن الملامح لنهر التيمز التى غاضت كضوء نجمة احترقت . فلماذا نتغير بسرعة ونحن لم نعشق فى العالم الا أن نظل ؟ ! لماذا لم تظل الدهشة لكل ما افعله . والفرح أكثر من وقع نزهات خطواتنا فى شوارع لندن ، وكنت غريبا عن المدينة لكنى لما وجدتك استرحت وارتويت تماما من الاحساس بأننى أصبحت أملك عاصمة الامبراطورية . واستسلامك فى حضنى ذكرنى بحلم قديم عندما كنا صغارا ونخاف من خوذات جنودكم التى تصلب شمسنا فوقها بأن نستعمركم كما فعلتم معنا ، لكنى وجدت فى استسلامك شيئا أراهن أن يكون قد حصل عليه قائد الاسطول الذى وطأ جسد أمى لينتهكه بعد أن خرت جسدا باردا مطعونا بلا يدين ، ونظرته لجسدها العارى تغرقه بغثيانها من رؤيته . لكنك كنت امبراطورية تستسلم بالحب ، كالامبراطوريات التى كانت تتعرى وتفتح فتحة الرداء الامامية بكامل طولها لنعال الجنود المسعودة لانها عشقت النبى . عرفت يومها معنى أن ينتصر الانسان فأخذتك فى حضنى وذراعاى لا يتركان من كل جسدك رقعة لم تتغطى وفى صدرك القادم برغبته رثيت لكل قادة أساطيلكم الذين علقوا فوقكم « قفا الشمس » لان وجهها الحقيقى كان وحلا يخوض فى الليالى المهزومة .

وعندما كنت سوقفين بذراعى فجاة فى الطريق لتقدمينى لاصدقائك :

ـــ « شاعر من مصر » .

كنت ارقب الزهو يؤرجح جسدك فيسمق جســـــدى وموجات التيمز تعلو وتلمع لتذكرنى بالنيل فى ظل الجسر عندما كنت اسير وحدى اتأمل الاشياء فاحس بأننى غـــير قادر على الرؤية تماما ورغبة فى ان ارى عالمنا مع انسان يراه معى ، واحساس فى رؤيتى بالعطش لذلك الانسان لم احس به وانت معى ابدا ، ولم أعد أستطيع تصور عودتى وملامحك الضاحكة بجانبى ليست بجانبى على ســـطح الباخرة ، وفى احدى المرات بعد أن ايقنت أن محاولة التصور مستحيلة رفعت عينى من مياه التيمز ورفعت كفك فى باطن يدى وعانقت فجوات أصابعك أصابع يدى وهمست لك :

ـــ لا اتصور أن تعانق أصابعك أصابع أخرى .

واشتد لهيب خديك وهمست وعيناك على الاصـــابع المتنقة : « صدقنى ، ولا أنا .

فأخذت أحدثك بفرح عن أمى وأخى الصغير والنـــاس الذين ستسعدين بهم فى بلادى وكنت تصغين كما لو انك تسمعين بابتسامتك . وأقول لك أخى الصغير فتضحكين وتعتصرين اصابعى وفى عينيك تسارعت موجات النيل تمرح بين ضفتى التيمز .

وسمعت صراخ أمل : بابا .. فصرخت طيـــورى كلها وصفقوا واحترق الصوت من المغنية وتدفق الموج بقســـوة ثم اشتعل خداك كحريق يضىء البحر ثم انطفأ كـــل شىء

عندما انفجرت الاضواء لاسعة فى القاعة . واخذت ارى الارهاق معقودا فى نقط العرق وبسمات غريبة تنبت وسطه، وكثيرون يصلحون هيئتهم ويجيئون ليهنئوننى وكنت أبتسم كطائر سرقته السكين ثم يتدفقون من الابواب الضـــيقة تاركيننى وحدى . اواجه بأن الانتصار على انسان ليس سوى تأكيد الهزيمة تسللت خارجا فلمحت ظلمة الشارع قابعـــة منتظرة على الباب . وعاد السور مع الظلمة يرتفع أقسى من الجرانيت بينى وبينك لاننى انا الذى بنيته ولم اعـــــد أستطيع ان اهدمه ، اسرعت بالاحتماء فى عربة فعدت اذكر تهانئهم والسـعادة المجهدة تتألق فى مياههم .

كانوا يريدون ذلك لحظة أن حدث كل شيء مع اننى كنت أود ان أعانقك ساعتها لكنهم صفقوا فرفعت وجهى بعيدا عن رغبة عينيك وفعلتها . وجوبهت بالمبانى العالية وأحسست اننى لا أستطيع مواجهتها .

وعندما رايتها والاضواء فوقهـــا مطفأة أدرت وجهى وصفعته بالارض حيث اعتاد أن يحيا لكننى وجدت من خلال واجهـــة العربة الزجاجيـــة اننا ندوس اشلاء منا ما زالت ترتجف .

« أى » نطقتها وأنا أستدير ودقات الساعة تعنف قاطعة بلا شك ، وأفاجأ بالجناحين يرتفعان فى أعلى الدائرة وحدهما وأنت لم تأت فبدأ ينفرجان ليبدآ سقوطا لا ينتهى .. حدقت بيأس فى النافذة ولم أر ظلا واحدا يتحرك ، بـــل سكون الطرقات النائمة حولى ككائنات بغيضة تحمل ثقـــة مفزعة فى ان احدا لن يوقظها ولن يجعلها تصحو أبـــدا هذه الليلة ، حتى المصابيح رغم انها ظلت تقف فى طابور لمسافة طويلة طوال ليالى العامين تتكاسل بمرور الوقت كما

لو كانت نعرف ان مهمتها قد انتهت فنامت هى الاخرى ملتفة بضـــوئها كله دون ان تترك منه شعاعا واحدا ليقود اللذين قد يأتيان . حتى درجات السلم يئست لما ســـــمعت زحف السائرين على الجليد ولم تسمع خطواتك . نكست راسى على لعبة الطفل الصامتة ، والصدا ككل عام قادم والكأسان لن يشما رائحة شفتيك وجننت فلهثت حتى رايت الارض السحيقة اضيق من جسدى والسماء اضيق من الارض فكيف سينسع قلبى لهذا العالم الذى لا يتسع لرغبة واحدة ؟ واحسست بالامواج تندفع الى اصـــابعى لتسقط ، وحاولت ان اعود بجسدى لان امل صرح فلم يطاوعنى فصرخت ليسمـــعنى ، والارض تصعد متسلقه الحائط بشراهة قط حتى انقطعت الصرخة وانطفأت الاضواء كلها واشتعل جسدى وانا احاول ان احتضنك فلم اجدك فى الفراش ولم اجدنى . واخـــذت اغمغم وانا اشرق بالدم والخادم يصرخ : سيدى : والمغنية الاولى تـــكذب باسمى يا .. ا .. م .. ل .. » .

***

صعق الخادم لما رآه يتحول دما بجوار الحائط يحتضن الارض والعشب باختلاجه قاسية تشدها كلها ثم راى فمه يبتسم وعيونه مغلقة ، ويموت ، ومازالت المغنيـــة الاولى تخلص للغناء وتكذب !

(مارس ١٩٦٦)

مسيح المراسيم المحالة

فى البدء لم يكن . حتى اللا شىء لم يكن موجودا ، لا الصوت ولا حتى الصمت . فكيف ولدت يا رفيف الضوء لتترجل فى الدروب التى لما تجف دماؤها بعد ، تبذر فى العيون المظلمة بذور شجيرات النور ، تصرخ تظن انـــه سيستيقظ انسان ، افنيت أضواءك لتضىء طرقات انقطعت عنها خطوات الكلمات ، فقدت كفيك لما غامرت بطرق عالمهم الغريب وصرخت يا ابت : ما اتاك . حدقت فيهم : ما سمعوك أدرت وجهك نحو الزيتون : فجعل ينتحب فى الصـــمت ، وينضح المرارة فى كل حصاد . كان صليب العالم ان يذكرك العالم ، لكنهم جوعى ، نسوا الحزن فأكلوا الزيتون ، ومن يومها وهم يجمعونه من مواسم الاعوام ، ويملحون صوتك فى أحواض البحار الميتة ، ثم يأكلون جسدك المنهك مطوحين بالعظم ولقد جعت فحـــدقت فى الزيتون يوما مثلهم ، لكنى رايت النحيب فنسيت الجوع ثم فقدته ، وامعائى تتقلص طاردة مجرد التصور ، فاكتفيت بأن اشبع كلما شـــممت زيتونة ، ثم تنبهت الى أننى صرت أقتات الحـــزن ، ماضغا فى بطء مرارة الكلمات التى ماتت ترجو الدخول ، على عتبات الاذان الطينية :

مصلوب الان على لا ارضك (*) لم أصرخ ، لكنى لم أملك الا يسقط منى رأسى فوق الان ، مجبرا على تحمـــل

(*) مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلا ، بل امتلاء غير مرئى بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها .

قدر الوقوف على قدمى الحائرتين فى اكتشاف طريقة امنـه للوقوف وراسى يحترق بيقظته . يواجه بوضوح حاد تكوم الجثة التى حسبت اننى نسيتها . فاذا بى افاجأ باننى كنت فقط نائما بالنهار . فجعت لما اكتشفت أن التناوم لم يعـد يجدى فى الهرب من الجثث . اذ ما فائدة أن نهرع ونطفىء الانوار ونخبىء فى الاسرة ونسحب الاغطيـة حتى نخبىء رؤوسنا بأكملها . مادمنا فى النهاية نفاجأ بأن لا النوم . ولا اغماض عيوننا تحت الاغطية يحمينا من توغل الادراك لبشاعة القابع فى داخلنا ، يحدق فينا بثبات كما لو أنـه يرى فى الظلمة بوضوح . مع أن ملايين عيونه مغمضة . الا أن تحديقه الاعمى يفزع النوم ؛ ويجعل الغطاء يتطاير والاسرة تتقلص تحتنا ، ونحن نرتعد ببرودة التحديق الثقيل فنضطر الى أن نستسلم لعيوننا التى تنفتح كمصراعى نافذة بلا هوادة . فتصلب عيوننا على التحديق دونما قدرة على النزول . وأحاول فى يأس يتكرر باستمرار تبين ذلك الصوت الغادر الذى يهرع قادما مجنونا دونما قدرة على تتبع مجىء واختفاءات لونه السريعة او الفـرار منه كما لو (   )
لماذا تصفعين جبهتك وأنا أتكلم ؟ لا تفهمين ما أقوله ؟

ألم يحدث لك يوما أن تقلبت من داخلك على جمرات جحيم العالم المفعم برائحة شواء البشر ؟ سوف أصرخ لو ادعيت أنك حتى لم تشمى رائحة شواء البشر .

لم يحدث ذلك أيضا ؟ يا للمصيبة . مع أن أغرب ما فى عالمنا انه المحور الوحيد الذى يدور حوله العالم ، أقصد سيخ الشواء . لذا تجديننى لا أستطيع تحمل الوقوف بـه وهو دائما يدفع الى داخلى . وما اطول ما عشت أدور به مع جنون استعار النار التى تشتعل تحتى ، صـاعدة فى

انتشار فظيع حولى . متقدمة نجاه الان لنصل اليه من خلالى حتى أسود . واذا كنت سترهقين نفسك بالتفكير دون ان تفهمى دائما . فيمكنك ان تحاولى الرؤية ، بشرط الرؤية فقط ، دون صراخ او اغماء ، لاننى لا أطلب منك اكثر من أن تقفى بعيدة . يحميك من مشاركنى الزمن . وفقط تديرين عينيك نحو ما صنعه العالم حيث يمكنك ان ترى موميـــــاء مطلقة اللحية ، ساكنة متخشبة على انها ، فاعبرى . ولو اننى اعرف أنى لن اتمالك نفسى من الارتعاد وشــفتاك يرتعد بحضنهما ولدى فارتعد كلما حدقت فيما بينهما ووجدتهما مزمومتين . فرجائى أن تعبرى بسرعة خلفى ، وامل أعرف الا جدوى منه الا تتركى فى الســـــواد اثرا . ولو مررت كشمعة منطفئة . مجنون من تترك يداه حافة النافذة ويستدير ملتفنا منها يسمعه يئن ويموت بين شفتيك . وسأعلق أصابعى من اعناقها بحافة النافذة ، واشد على الاعناق الوثاق . وسأطبق أسنانى على عنق الغمغمة حتى لا تثير ضجتها ككل مرة . لاننى اكرة اصوات الندب الصارخة ، ولا اطيقها الان لو حدث ان رات الغمغمة مسير عينيك . وصـــــوت ولدى . لاننى أعود هناك ، فى النافذة : صغيرا وحافيا ، لاننا لم نكن نحس بأن الارض غريبة عن بطون أقدامنـــا . وأرتدى جلبابا صغيرا وتحته قميصا قصيرا دونما سروال، لاننى احب دائما ان أقف أمام البنات ذوات الضفائر لاتحدث مع واحدة منهن بالذات . أبحث عنها كلما ســقط الليـــل وأطل فى عينيك فأجدك . آخذك بعيدا وانت خائفة . آخذ فى الكلام لك فلا تعودى تذكرين الخوف وتتكلمين انت أيضا لى . ونحب أن نفرح ، فيرى كل منا رغبة الاخر فى الفرح فى عينيه رغم الليل . وننحنى معا نصنع من التراب جدرانا بارزة على الارض المستوية . تنقطع لجزء فيكون باب . ثم نكمل مربعا من الجدران ، وبذلك نكون قد صنعنا بيتا لنا بجوار

النهر ، اتركك تكنسينه وتفرشين حصيرا وهميا ، وتعلقين على الجدار فى الليل مصباحا وهميا . والغريب يا عذراء انه كان يضىء . والا فكيف كنت أرى ملامحك الصغيرة بكل دقتها . بل حتى عينيك وحنينهما الازرق تحت خصل الذهب المهمنة على تفاحتيك ؟ ! . وادعك لبرهة اذهب خلال نهارها للحقل ، احرثه ، وأبذر البذور وأغطيها ثم انتظر حتى تبيت الشمس لاعود لك . وادخل وانا ارسل صوتى منبئا بقدومى ، هازا ساقى بحركة متسقة مع سير الحمار الوهمى الذى يحملنى وانا انادى : افتحى يا بنت . وتهرعين صوب الباب لتفتحينه بأكمله راغبة دخولى بلهفة ام . واندفع متعمدا الا التفت ناحيتك كما يصنع الرجال . واجلس فتاتين وعلى كسر الفخار نقتات العشاء ، ونشبع . واغرس فى فمى ورقة ملفوفة غير مشتعلة وانفثها امامك واغتل شاربى ويداك تعدان لى الشاى . وعندما تنتهى سيجارتى وتفرغ اكواب شاينا تتثاء بين فأفهم . واخفض صوتى أمرا أمرا حلوا : قومى وطى اللمبة وكما لو أن الغرفة اظلمت تأتين بجوارى لتنامى فاستلقى على جانبى لصق صدرك . ويفتح كل منا عينيه فى عينى الاخر ونرى السباحة مغرية . ويجعلنا الاغراء نشتعل بالرغبة فنتململ على الحافة ونضحك على التوالى كل منا فى عينى الاخر . وفى لحظة صمت نبرق بالصمت على أن نسبح معا ، فنرفع معا أطراف جلالييننا . ولتلك اللحظة كنت أمشى بلا سروال فى شارعنا عند اشتداد غروب ذلك اليوم . احسست بالليل يأتى ففررت هاربا من فخذى أمى لابنى لى معك بيتا ، لكنهم داهمونى بالملابس السوداء مالئين الشارع الذى يمر فى بطن الخضرة منتهيا عند زرقة السماء الكالحة حيث كانت المقابر ترفع رؤوسها المدببة الجهمة . ورنة الندب عالية محروقة وهم يحملون لى ميتا . صعقت فالتصقت بالحائط وهم يتدافعون أطول منى

فالتصق بالحائط أكثر . ظلوا آخذين فى الصوات .والصوات اعلى منى بكثير . نافذا فى جسدى كنباح الكلاب التى تجرى خلفى تعضنى . رغم الذعر لم اصرخ . كنت ادرك بذعر اقسى ان صراخى لن يخيف صواتهم فظللت متشبثا بالحائط ، وعندما اختفوا عدت قادرا على الفرار . فأرجوك أن تمضى بسرعة حتى اريح ظهرى المصلوب امام عينيك . وحتى اكف عن ايلام شفتى كلما سعرت الكلاب وعضتنى دون ان أملك الصراخ فى افواههم . لكنى الان أرفع وجهى واسأل : أليس حراما ان نصلب ؟ وهل تعرفين يا عذراء لماذا حكم بالصلب دائما ؟ لا تعرفين . ولا احد يعرف للاسف لكنى الان أستطيع ان اهمس لك بالسر دونما خوف ، لان كلا منه يحاصره زمنه بجبه . ولذلك فاننى لا احس بالخوف الان وانا أعطيك السر : لان الذى صلبوه لم يكن له اب . ولما لم يجد أحب بجنون ان يكون له ابن ، ليرى أباه فى عينيه . والمصلوب الذى لم يلد . لانهم عاجلوه بالصلب : عشق يوما ولذا صلبوه . فالذين يحملون قلوب اليهود كرهوا أن تعشقه معشوقته وعندما كانوا يرفلون فى ثيابهم المغسولة أمامها ويسمعونها صوت الذهب فى أكياسهم ، كانت تتأفف من النظر نحوهم أو حتى من أن تدير وجهها عنهم . كانوا يسلكون دوما سلوك الافاعى الغريبة .

ومعشوقته انت مثلك . نعم ، ظل بلا معشوقة حتى الثلاثين . أتدرين لماذا ؟ نعم ، كانت أمه عذراء . وظل يحب العذارى ويهيم فى الطرقات ولا يجد .

اذكر كل اللواتى رايتهن قبلك يا عذراء : كن حبالى. رايت عيونهم وهن تلد . وتحت الرموش المهزومة تتهدل الاثداء . وعندما كنت القاهن فى طريقى وأفتح لهن صدر

عينى كن يسلمن عيونهن لى بألم ويهمسن : لم نكن ندرى انك سوف تأتى ، ولكم بعنا ارضنا بلا ثمن . نكست راسى وعدت اهيم بالثمن المحتبس فى صدرى .

ولكم اخشى ان تستغرقى فى الضحك لو اخبرتك بما حدث لى يوم لقيتك ، وان عالما بأكمله من الممكن ان ينقلب راسا على عقب لمجرد أن يتعرف الانسان على الانسان يكفى أن اذكر لك أننى قبلك كنت لا اتحمل رؤية الاشياء . واحيانا الناس ، بل قد تندهشين لدرجة الفزع لو اعترفت لك بأننى أحيانا كنت لا اطيق أمى . واشد ما كان يصيبنى بالاشمئزاز من العالم ، مواجهتى بالمحطمين فى الطرقات . بالذات بعد ما يئست من امكان انتشالهم بعد ما رايت العالم كله وهو لا يعدو كومة من حطام .

وعندما كنت ادخل كهف الغم ، كنت ارى قبل أن ارى اى شيء كل ما سوف أراه : الغم يتراكم كذرات الغبار المتساقط فى اعمدة الشمس المائلة . يثور بالكنس ثم يعود ليساقط كثيفا قاتما فوق أمى واخوتى ، والاشياء . مالئا الارض . لكن ثمة فرق واحد أن الغم فى بيتنا لم يكن يثيره الكنس . وانما مجرد التنفس ، لان الكلام كان تلال الغم ذاتها . كنت دائما ادخل فأرتمى على الحشية الجامدة على نصف سرير . واشبك قبضتى تحت راسى ، وأهرب فى التحديق فى أشياء بيتنا ، فأحدق مرغما فى السقف الذى يظل ينخفض فوقى ، ودونما خوف ، كنت اتنهد طاردا كل انفاسى وبى رغبة واحدة تحتل مكانها : الا تعود .

وكانت تقترب ثم تقف بالطعام : طبق فى يد ورغيفان باليد الاخرى . تضعه وتغيب وأحدق فى مكان اختفائها رائيا فى يأس موجات الغم التى تجاهد لكى تتحرك فيها ،

وتعود وبيدها قدح الماء . تضعه أمامى وانا اتابع قبضتيها المبتلتين من غسيل القدح الصدىء . وحل منهما نقبض عى الرقعه المقابلة لها من الجلباب على الفخذ لتجفف نفسها به . ولذلك فالجلباب دائما ملوث عند فخذى امى لدرجة القداره ا . وأتذكر اننى سمعتها . ومن تذكرى لصوت نهجها أعرف انها سالت ان كنت اريد شيئا آخر . وارقب الطعاملفترة طويلة ثم اهز راسى بالنفى . لكنها لم تكن تخرج بسرعة . كانت تبطىء كما لو انها مرغمة على ذلك بدافع خفى . ولم اكن بالطبع الذى يدفعها لذلك لاننى لم اكن ابتسم لها فى هذه السنوات الاخيرة ابدا . ولابد ان شيئا مى داخلها كان يرغمها على ان تتعمد الابطاء فى الخروج لتقف مسافة الوقت التى تكفى لان تسالنى فيها ان كنت متضايقا من حادث وقع لى . مسافة الوقت فقط صامتة لانها لم تكن تسال . ربما لو كان ما تراه فى وجهى يحدث لمرة او مرتين كما كان ذلك فى الزمن البعيد لكانت سالتنى . لكن لابد انها يئست لما رات الاجابة من اعوام طويلة لا تتعدى الصمت ، والاغراق فى التجهم . ولابد أننى كنت أخيفها بحالتى تلك الى الدرجة التى تخاف من أن تسألنى ، اذ كانت تبطىء فقط فى الخروج لتتأملنى بحسرة لا تنقطع ، هذا اذا لم افاجئها وأحدق فى عينيها مباشرة ، اما اذا حدث ورفعت عينى فى عينيها فكانت عيناها تتراجعان بسرعة منسحبتين خارج الغرفة أمام الـ (   ) واضيق بكل ما حولى . ومن خوفى أن تعود وتجدنى لم آكل الطعام الذى قدمته الى ، اقوم لانكفىء على الخبز البارد ، اقطعه واغمسه فى طبق الطعام البارد ثم أدفعه الى الاسنان التى تدفعه بدورها الى البلعوم المتصلب فى برودته فيكاد الطعام يجرح حلقى . واستسلم بعد ذلك للمضغ حتى اجد الطبق فارغا والقدح هبط الماء الى نصف صدأ جداره ، فأحس بأننى

امتلات . وكان ذلك يعنى أنى شبعت صدءا . وربما لذلك السبب غسلت أسنانى جيدا بعد ما دهشت لما صـــادفتك تثيرين فى عتمة طرقات البناء الصخرى رعشــة الظلمـــــة حول احدى السمكات المضيئة و (   ) أبدا . لقـــد استنفدت كل قدرتى على التذكر ، علنى اعود حيا أحيـــا تلك اللحظات البعيدة ، واكتشفت للاسف أن كل ما استطيع استعادته لا يعدوا خارج التحول : الشكل ، رنين الصوت. لمسات الايدى ، أما هو ، ما هو داخل كل هذا ، فاننى أعجز تماما عن أن أوجد فيه . بل أوقن الان اننا لا نوجد مرتين ابدا . وما أذكره بالتحديد ليس سوى شكل النافذة التى التقينا خلالها .

كانت رقعة مستطيلة رحبة من السماء نرتفع ونهبط فى منتهى الصفاء على قمم انحناءات خصلات شعرك الطويلة التى كانت تصعد من فوق الجبين الشاهق . صانعة اقواسا مدعلة لدرجة انها بدت قادرة على الزهو أمام وجه اله . ثم تنحدر رشيقة نحو مؤخرة العنق حيث تتجمع كلهـــــا من فوق رأسك وعبر اذنيك ملتقية فى ثلاثة أنهار طفلة . اخذت تتوهج فى لعبة لم تصنعها ثلاثة أنهار فى العالم أبـــدا ، اذ تجرى الانهار الثلاثة وتبدأ فى الغوص والبزوغ كل منها من تحت الاخر على التوالى دونما اختلاط أبدا . مضيئين بلا شمس لعبة شاهقة الروعة لا تنتهى الا عند أسفل الظهر ، حيث عقدت شريطا سماوى الزرقة توقفت عنده شـــقاوة أنهار ضفيرتك يا عذراء . ولا أدرى كيف واتتنى الجـــرأة على التوقف عند انهارك ، ربما لان جسدى قبل هذه اللحظة كان مشحونا بالتقزز من العالم ، واحسست برغبة طاغية : اننى أرغب فى أن أغتسل حتى النخاع . وتحلو الرغبـــة فى الاغتسال كلما راقبت لعبة انهارك . وعندما صرت الى

جوارك كانت الانهار لا تزال نواصل لعبتها . وفى اللحظة التى تلقيت فيها ابتسامتك نوارت الانهار لتاتى امواج تولد بلا توقف . نعزف سيمفونية غامضة احس فيها رغم كل الغموض بأننى آتى ويتلاشى العالم الوصمة (   )
اصغى . واتأمل شيئا رائعا يولد فى عالم لى (   )
لا ، ليس هذا ما اود ان اقوله . اقصد كائنا رائعا (   )
لا . ليس هذا أيضا . ربما ، او ، آه . ملعونة هذه اللغة التى بدات نموت هى الاخرى . تصورى يا عذراء اننى احب مجرد الكلام الان . فأفاجأ بان اسنانى تصر على الا تسمح لى بالكلام ، واننى مهدد الان بألا اكمل حكايتى لك ، وان ما حدث حدث وسوف ينحول الى ماض يموت ونحن وراءه دون ان اقول لك (   ) ياعذراء . او (   ) يا عذراء . آه . لن احتمل طويلا لو ظل هذا يحدث . لكن للاسف . يبدو الا مفر من ذلك ، واننى لن أحكى لك ابدا عما حدث فى حياتى لحظة ان اصطخبت انهارك لحظة ان رانتى — ربما كميلادى ، او ربما ككل ميلاد ، يوجد دون ان نستطيع رؤيته بوضوح ، ولا نستطيع التعبير عنه بصدق ابدا . ومع ذلك لا استطيع ان اكف عن المحاولة رغم جدار البعد :

شفتاك منفرجتان ، تسقيننى الاضواء . والسحابات فى نافذتى الشرقية تخضر حول عالم جديد يتبدى فى الشروق، وابتسامتك التى تشرق دوما أمام دهشتى وسؤالى المتطاير الذى لا يكف :

— كيف جئت الى هنا ؟ !

— انس ذلك الان .

وظل الفرح يدفع سؤالى كيف جئت ، ومن اين ، وانت تحيطين بعينيك وجهى كله ونصمتين . وعندما الححت من اين ؟ ! ادرت وجهك . لن انسى ابدا انك ادرته الى بعيد . ابعد مما يستطيع أن يجذف اى انسان . حيث ( ) ابدا لن اعرف . كل ما اذكره جانب وجهك والبسمة تنزلق من فوق خديك متلاشية ازاء ما تنظرين نحوه . ثم ترتعش فى الشفاه وتموت ، والامواج تسكن . كانت رغم كل ما يجتاحنا فوق علو الطوفان بالداخل ساكنة مسجونة بالصمت وكاد الطوفان الذى صحوت عليه يومها أن يتلاشى دفعة فأهوى مرتطما بالقاع الصخرى .

وتحركت اصابعى بسرعة نحو رسغك ، وتسلقت وبر السترة الزرقاء الخفيف ولمست بشرة اليد : كانت يدك تختنق وحدها . واحسست بها أول ما لمستها تكف عن الاختناق وتسكن ليدى ، ووجهك يعود لى ، والطوفان يعلو ويتسارع بكل الق الشموس التى لم تنر العالم من قبل ، والبسمة تنبثق وتدب بايقاع هائل الفوضى والتناسق . والموجات الفرحة تعزف مستحيلا يوجد .

ـ كان قاسيا ؟ .

لم يكن له وجه انسان ابدا !

كنت اعرفه ، لكننى لم اتصورك ابدا ازاء الـ ( )
وسألتك دون أن اتمكن من اخفاء سخطى :

ـ لماذا عشقته ؟

وحدقت فى الـ ( ) ثم ابتسمت بسرعة :

ــ رغم كل اعوامك الثلاثين فمازلت طفلا .

انتزعت من سخطى ابتسامة مماثلة لكنها كانت مثقلة بالحزن فى شفتى :

ــ لقد عانيت تاريخك كله فى البحث .

ــ أعرف . ولذلك السبب فمازلت طفلا .

فالاطفال وحدهم هم الذين يعانون فى البحث . الكبار لا يبحثون عن شيء .

وضحكت فجاة كطفلة شقية :

ــ دعك من السؤال . فى ذلك العالم لا يمكن أن يسال أحد . اذا لم يمت سؤالك فسوف تموت انت . بل حتى انت لا تملك ان تحيا او تموت . كل ما تملكه ان تعانى وجودك ، وأن تحدق فى المستحيل بصمت .

وعاد الحزن يجتاح الامواج المشرقة فتسقط فى أسر العتمه . وهززت راسك بعنف .

ــ آه . دعنا لا نذكر الجحيم حتى لا نحترق .

تأملت عينيك طويلا ، والصدق النّاصع النقاء كأقواس المطر . ودعنا لا نذكر الجحيم حتى لا نحترق ، لم اكن بعيدا لحظتها ، لكنك كنت فى جحيمى عثورا ، وفى العثور الذى احيا دائما فقده ، نسيت كل شيء واصابعى تحبو ، تملك الراحة ، ثم تحبو اكثر فتستقبلها الاصابع الخمس ، واربع بوابات عذراء تفتح فى لحظة شوق للاصابع الداخلية . وبرقت

عيناك لى ، ثم برقت الشفاه بالرجفات المشتعلة ، واجتاح البرق كل الوجه فاشتعلت منارات العالم خلف كل ابحار ، ورايت الشواطىء . ولم املك الا ان ابتسم رغم كل الفرح : كان قاسيا ، اقسى مما يستطيع الانسان أن يتلقاه . وكان فجائيا . ولم أكن معدا له ، اجتاحنى فتطايرت بجانبك لحظتها وارتفعت . كنت اصعد مسحورا كطائر دمر البقاء على الارض اجنحته . وفى اللحظة التى كاد يشوى فيها بالجحيم الزاحف من كل اتجاه ، رأى الشواطىء تجىء خلف الرحيل فى فرح المنائر ، وخلف الفرح كانت الدهشة تدفعنا للفرح أكثر ، ولم نجرؤ أن نسأل ان كان الجحيم قد انتهى . كنا ننسحب كل منا نحو الاخر ، بعيدين عنه حتى لا نعود نحترق ، ويضيىء كل منا بابتسامته وجه الاخر والفرح يهطل فى موجات لا تنقطع .

واشتد صفاؤه يغمرنى حتى بدأت لا اشك فى صفاء ملامحى وهى متفتحة نحو الشروق ، بحيث جعلت أحس بانصباب الاضواء وارتواء بشرتى التى أخذت تتوقف لتتأمل ببطء ما تحت غبار الاشياء ، وانا اغوص فى امواه الدهشة وطعم العالم يبدأ فى التغير : المرارة تبدأ تنخفض من فوق جدران حلقى وتغيب ، وربما لاول مرة أو ربما لمرة ثانية احس كما لو انها أول مرة بل يخيل لى اننى ذقت تلك الحلاوة من قبل . كأنها من قبل كانت مفقودة ، أو غائبة . لاننى عندما ذقت حلاوتك احسست بها مختبئة ، غامضة تتيقظ وتعود ، كما لو أنها فرت من عالمى قبل ذلك كقطة صغيرة حاصرها كلب يقارب على الجنون ربما ذلك اكثر وضوحا : ففى اللحظة التى بدأت أعثر فيها على طعمك الحلو تفجرت فى جسدى كله فأحسست به يحلو بشكل غريب ، حتى اننى بدأت اتأمل كلا من راحتى واذوقها بلسانى لفترة طويلة

ثم أبعدها واتأمل شفافيتها التى تزايدت لدرجة أنها بـدأت تضىء وانسياب أصابعى حتى نهاياتها (   ) . واخذت اقبض يدى وابسطها كما لو اننى اكشف عن قـوة ذراعى ثم تحسست فكى وذقنى واسفل شفتى كنت أحيا عطشى اليك . وكنت بلا وعى ادلك شفتى فأحس بالحلاوة الغامضة على لسانى ، وبدأت راحتى تهوى لمس شعرى الخشن ، حانية عليه ، صانعة منه خصلات قوية فوق جبهتى تعـلو منكبرة كما لو انها تبدأ فى مواجهة العالم . وكلها احساس رائع بأنها قادرة على أن تواجه . وبدأت اخاف على جسدى من التراب . لا افهم السر بالضبط ، لكن ما أذكره أننى بدأت اهبط النهر كثيرا لاغتسل . واظل لساعات غير محدودة بين المياه الحلوة الدافئة وهى تغسل جسدى وانا أتأملهـا بشغف يتدافع فى موجات صغيرة تهطل بين شـعر ذراعى وساقى الذى كان يتموج مع المياه التى لا تتوقف عن الجريان. وكنت أتعـرض لنشوة طاغية عندما انتصب واتأمل هبوط القطرات على جسدى الشاهق وهى تحيلنى الها مصـريا يغتسل تحت شلالاته .

وما جعلنى استسلم تماما لتيار الدهشة الـذى بدأ يسحبنى بدء رؤيتى للعالم كما لو اننى اكتشفه يا عذراء : اكتشفت ان جسدى كان يختبىء فيه كائن يملك ان يجعلك تبتسمين له ، وأن الجحور الجبليـة ألتى كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ ، وأن الشوارع ليست سراديب نمل ، وان الاشياء ذوات الراس الواحد والاربعة اطراف، والتى ترتدى مزقا مضحكة من النسيج وتتحرك مشدودة الى الارض دائما ، لم تعد أشياء : انبثقت منها فجاة عيـون فأصبحت ترى . وعندما كنت أتأمل اى واحد منهم بدهشة ، كان هو الاخر يتأمل عينى . وتصورى ان يستحيل شىء الى

كائنٍ لدرجة انه يستطيع أن يبادلك نفس التصرف ؟ ! نعم.
بل حتى تماثيل الثلج ، ادفاتها الضحكة التى لا تنتهى فى
نافذتى الشرقية فأصبحت اتأمل بحب غريب شكل تسريحت
الشعر ، وايقاع الخطوات الرشيقة التى تنظر الى الامام.
والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير ، بل كيف يتمطى
الكحل فوق الرموش الممدودة ويحمر اللون الاحمر فـــوق
الشفاه ، بل وفى مرات عديدة ، لاحظت ان عيونهن اخذت
تلمع ، وفكرت بفرح تجتاحه الدهشة كيف حدث ان تحولت
كتل الثلج الى اناث ، بل والاغرب من ذلك اننى اخذت لا
أستبعد أن تكون بينهن عذارى .

ولما دخلت بيتنا لاول مرة وانا احملك ، وجدت أمى
مازالت جالسة مستندة بظهرها على جدار الغرفة بجوار
السرير الصدىء . جعلت اقترب منها وأنا مندهش لوجودها
على هذه الحالة التى اوشكت ان تكون أبدية (   )
حاولت ان اتذكر متى بدات تجلس هكذا ، ربما قبل وجـــود
الزمن الذى نعرفه أو المكان الذى يأسرنا . أو حتى الشمس
كشمس . أحســـت بالاكتشــــاف يجىء كطعنـــــة الــــ
(   ) ماذا صنعنه كى توجد وتظل هكذا ؟ . واخذت
أعانى رؤيتها وهى توجد . والشمس تتسلط عليها وتحركات
الدود المولود ، ثم وهى تصلى لمن وراء جحيم الشـــمس
وجنات المطر وتسأله الطعام بعد أن فعل فعلته . اكتفى
بأن غمغم وهو بعيد : عندك نخلة فهزيها . تألمت للهجتـــه
وهزت جزع النخلة ، لكن لم يتساقط شىء كما اخبرتنى فى
نوبة غيظ ، لانهـــا كانت مجهدة ، وكان المفـــــروض أن
يهزها هو .

لكن الغريب أنها لم تكن تشتكى لى منه ، وكان يغيظنى
أنها تعشقه رغم كل تعذيبه ولا مبالاته بها .

وبدات اعانى من وعيى بانها حزينة فجعلت اسالهـا عن ذلك . واحاول أن اسالها بمرح أن كان يوجد طعام . واصبحت ارجوها أن تجلس بجانبى وأنا اتناول طعامى . واطمأنت امى لى فاستدرجتها حتى بدات تشكو . فأخـذت اصغى : لم يعد وجهها وهى تشكو يجعلنى اتضايق منها . بدات احس . وكما لو كان ذلك لاول مرة ، بأنها تعانى ، وتعانى اكثر بكثير مما كنت اتصور . بل واخذت احس احيانا بما تعانيه ووجهها يتقلص ، والمعنى الصعب يحاول أن يطفر ثم لا يلبث ان يتكور تحت الجلد وبعدها يختفى شيئا فشيئا، غائصا فى القلب . مفجرا دما اسودا الى شفاه أمى التى تأخذ فى الارتعاش بعجز ، واحس بما تعانيه قائمـا ازائى ( ) لا يسمح أبدا بمجرد التفكير ، لدرجة اننى بدات اضطر لحظة أن ادير وجهى ناحيته الى التراجع بقفـزتين او ثلاثة خشية أن احترق فى الـ ( ) ابدا لن انسى لحظة أن حدقت فى وجهى وتأكدت من اننى اصـغى للـ ( ) .

آسف اذا وثقت الان اننى عاجز عن نقل هذه اللحظة لك ، وان حبر الطباعة لا يمكنه ان يفعل اكثر من ان يكون حبر طباعة . كل ما استطيع أن اذكره انها لما تأكدت من اننى اصغى توقفت شفتاها تماما ، وأدركت انها تؤنب نفسـها لانها شكت لى ، بينما انا اصغى فعلا ، قفزت فجأة وحملت الطبق الفارغ وسألتنى ان كنت أحب أن اشترب شايا .

لمحت الرقعتين المتسـختين فى ثوبها ، وضحكتك يا عذراء ، فأحسست بأنى اختنق ، وقلبى ينتفض تحت وخزات حادة فقفزت وراءها ، وضعت كفى على كتفها وانا لا اجرؤ على النظر فى عينيها ، وعلقت عينى بشعلة البترول والدخان

الاسود يتصاعد غزيرا خانقا الى راس الموقد . وقلت لها ان كل هذا سوف ينتهي ، وانك تحملت كل عمرك الماضي فلا اقل من ان تتحملى أياما قليلة سوف تمضي بسرعـــة ، وبعد ذلك لن اجعلك تعطشين للفرح ابدا ، ولحظتها كنت اراك يا عذراء .

ابتسمت امى ، والدخان الاسود يتلاشى وانهمكت فى اعداد الشاى ثم سمعتها وانا اشربه فى غرفتى تتكلم معجارتنا بصوت عال ، بل وسمعتها تضحك أيضا .

وشاهدت الليل يوشك على البدء فى الســـقوط ، فرأيتك يا عذراء تمدين لى جسرك عبر الامواج الليلية ،واخذت أحدق مشدوها فى الجسر المتوهج الممتد من اول ســـــاحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجافة ، وعظام الهياكل العارية على هياكل السمك الميت ، ومحاجر العيون الخاوية ، حتى ينقلنى عبر كـــل الليل الى استدارتى عينيك وهما تستحيلان الى بوابة واحدة تقع فى نهاية النهاية أسفل الزنزانة الصلبة الصدئة الزرقة، مستديرة عبر البعد القاسى ، مفتوحة على عالم لم ينم كعالمنا خوفا من الظلمة لانه لم يعرف سوى الصحو فى حضن الشروق دونما ليل كليلنا ، دونما موتى .

أول ما رايت ذلك لم أتمالك نفسى من أن أصيح مناديا على الذين يتساقطون ميتين على الرمال خلفى ، ونصفعددهم لم يمت من الموت نفسه :

— سيأتى يوم لن يموت فيه أولادنا .

كفوا عن حفر اللحود لاولادهم برهة ، سمعت فيهـــا

قلوبهم تضج بالفرح ، لكنى سمعتها تصاب بالسكوت فى اللحظة التالية ، وهم لا يصدقون آذانهم ، لانهم عادوا يحدقون فى الارض فلم يروا سوى الماضى الممدد فى لحده ، فانخرطوا فى البكاء :

ــ انت لا تقول الحق .

وكدت أسقط باكيا معهم وافقد صدق رؤيتى لولا اننى تمالكت نفسى ومسحت عينى بسرعة وقلت لهم بصوتى المبحوح " اقسم بكم اننى رأيت . وعدت أجول فى الطرقات أقول للرفاق : « ارفعوا عيونكم ...

وانشروها الى اقصى ما تستطيعه الاجنحة ... فلن نعد قمة الطموح تحت سقف مقبرة ...

ارفعوا عيونكم ، واملاوا الاشرعة بأفق العالم لاننا :

سنأتى بأطفال لن تموت ...

وأغرب ما حدث يا عذراء لحظة أن انتهيت من ندائى ، وأطبقت شفتى ، مديرا عينى فى الصمت ، اذا بى افاجأ بها ما تزال تجول فى الطرقات تقول للرفاق .

استغربت فتحسست شفتى فوجدتهما مزموتين بشدة ، وعدت أصغى فاذا بها تجول فى الطرقات تقول للرفاق . أخذت أنصت بدهشة لاصواتى التى تتقافز من صمتى تحتشد فى الطرقات ، وأصوات المعاول تتوقف عن حفر اللحود . والطرقات تجن بالصوت فتصحو جارية نحو الانهار الدائمة ، واطئة كل القيود ، منتزعة كل صليب ، محتضنة المصلوب

من عليه ، ثم حارقة الصليب حتى لا يجدوا صليبا يصلبونه عليه ثانية عندما يأتى الـ (   ) .

....

....

المستحيل يادانا طينية مستحيل الرؤية مستحيل الاحتمال وما حدث وكان اقسى من احتماله تحوله بفظاعه الى الـ (   ) هذا الذى صار ممكنا . بلا توقع ابدا ، ومن جوف الصمت الهادىء المتظاهر باللا اكتراث ، القابع فى منحنى ليس شديد الظلمة بقدر ما هو ملون بالظلال المتطاولة تتماوج بأنفاس ليست للريح ، اخذ يبدا صوت الحدوث . محالا قادما بتؤدة كما لو انه ليس غريبا ، موغلا فى الوجود على حساب تخلينا عن استغراب وجوده ، محققا نفسه بتراجعنا وفرارنا فى الصمت ، سارقا أرضنا من تحت أقدامنا . والغريب أننا لا نبدأ فى الاكتشاف الا متأخرا جدا . فى اللحظة التى نرى فيها أرضنا تدور بعيدة عنا ، تحته . ونحن نهوى فى الهوة السحيقة التى ليست تحتها أرض ، حيث (   ) حين (   ) أبدا . اللا معنى هو المعنى الوحيد لاية صرخة تطلب النجدة . فى الهوة لا احد ينجد احدا . لان لا أحد يملك ارضا يقف عليها ، فكيف وهو يهوى سيثبت نفسه وينتشل طالب النجدة . ذلك بفرض انه استطاع أن يعبر المستحيل ويوقف تهاوية ليدير اليه راسه وينصت الى صرخاته .

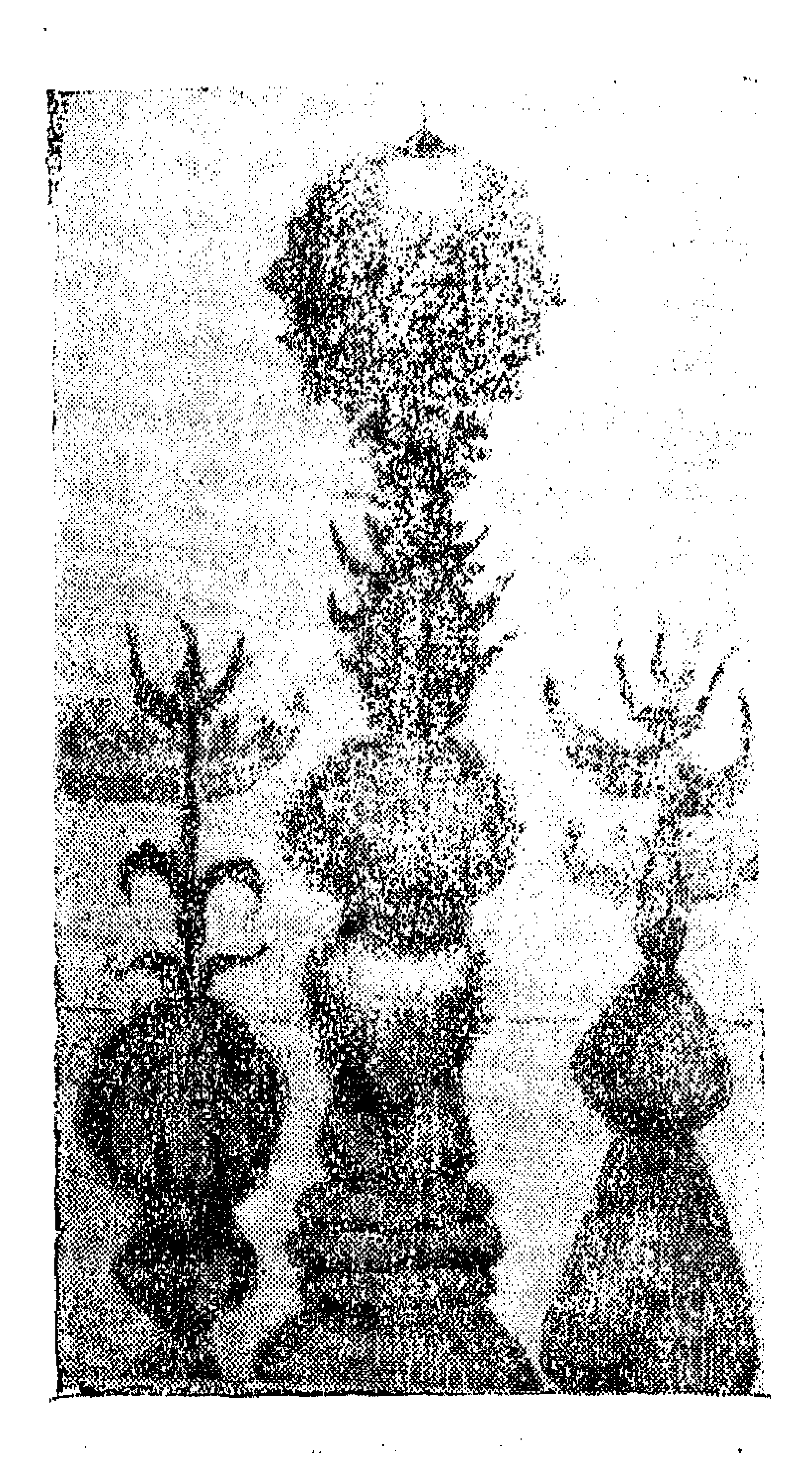
ولقد حاولت أن اوقف عينى عن الاهتزاز فطعنت بالـ (   ) وأنا ارفع حيث المسامير ترشق فى راحتى المشدودتين للتسليم بعيدا عن ذعر الشفاه ازاء طغيان

المستحيل . والـــ (   ) ينمو بيننا . يتمدد ، يستحيل الى ابعاد تتوحش ، ترقد كغرق البحـــر . غليظة القـــوام كموجات استحالت الى قبضات خرافيـة تخنق اية اصـــوات نسقط فيها . وازاء طعنات المســـافات الموغلة فى دفعى سقط صوت الانسان فى الّـــ (   ) وبعده صـــوت كل اشياء العالم . فأخذت أتامل طويلا : صمت الزيتون . عدت انظر لهم (   ) فقدت كفى وانا انظر لهم . لم يحتمل الرجال . لم يقف بجانبى سوى الحبالى نظرت لهن (   ) اما العذراء (   ) رفعت وجهى مذعورا من الصـــمت فحط على الصمت . وارتفعت الى السرسعات المعذبة التى تنطلق رغما عنها طوال زمن التعذيب وتندفع لائذة براسى احد من المسامير المحمية فى كفى . وسقط وجهى من الصمت عائدا الى الصمت . وتأملهم المحاصر فى العيون التى تعانى الرؤية يحاول أن يثبت ، أن يستكين ، الا يصرخ ، الا يحتج . الا يطلب الرحمة ، الا يثور ، على الرغم من انه يتعذب بالـــ (   ) وصمت نفسه . ولم استطع أن ابتعد عنهم بعينى واتركهم بعد ذلك ، وتذكرت ما سوف يأتى فجعلت أنتحب على العالم الذى تيتم من بعد ما صلبت الكلمات .

و   ارفع وجهى نحو العالم الصلب ، وجبهتى لم تنمح من عليها ظلال الارض من طول الانحناء فوقها ، واحـــدق بخجل الذى كان واذكر ما نسوه (   ) أبدا ، من الصعب يا آذانا طينية أن تثبت عيوننا على عالم غير ثابت ، عـــالم قوس قزح اكثر وجودا وثباتا منه ، عالم يوجد ويفنى فى كل يوجد ، وفى كل يفنى . نراه فى اللحظة التى لا نراه فيها ، وعندما لا نراه نراه ، وعندما يوغل فى حضننا نحس بأنه ليس فى حضننا أبدا . وعندما يبتعد نحس بوجوده بين الاثداء تماما . كما لو انه تعلم الخديعة من مخادع لم يضبطه احد

حتى الان . ولو ضبطوه لن يستطيعوا اثبات أنه مخادع ، لانه فى اللحظة التى سيطبقون عليه فيها بأيديهم لن يكون بين أيديهم .

وكم نحن ضحايا خداع ابدى أكثر وجودا من الابد نفسه ، تشترك فيه أمنا التى تضاجع اى رجل وتدعى انه من صلب الالهة لتوهمنا بأننا آلهة ، وضحايا أغشية البكارة التى تتنحى لكل غاز يستطيع ان يشعل نارها بعد ما يهدم الاسوار . طالما انه سيأتى بالطعام . وضحايا العالم الحرباء الذى يستحيل طينا بالمطر وتلالا جدبة باليقظ ، وتمحا ، او قطنا ، أو توتا ، حسبما ينافق الفصول . والا فكيف فقدت الزمن الذى كنت أدخل فيه بوابتك المتوهجة بالابد المشرق دوما وهى تفتح لى فأهتف يا لعالمى الرائع ، واحس بعد كلماتى بالصدى يتطاول فى ذاتى لاحس بأننى ما يتوهج فى الشمس ، ويصفو فى الزرقة ، ويصلصل فى جريان الانهار ، ويخفق فى سماء الاجنحة ، ووراء كل انتظار يجىء . وبعد كل جوع يأتى اعياد حصاد ، وفى أمسيات النهار الشقية نسيم رخاء ، وللزوجات اللواتى يعذبهن خلو الفراش فى الليل الارمل زوج يعود . يسرى للعذارى فيحتضنه حلما ، ودماء تجتاح بحريتها اية اسوار ، وعنده تنتهى الاشواط ، ومنه يبدأ كل شوط جديد ، وانى كالاله القديم القديم القديم ، لا يجعلكم تصفعون جباهكم فى الارض من اجله كل يوم أينما كنتم ، لكن يلعق كل أدرانكم بحنو لسان قطة احتضنتكم ، لتكونوا أنظف ، ويسقيكم لبنه بلا ثمن . لكننى أعود أنسى ما نسوه ، والاشياء تدوم بالوميض الذى يعمى قبلما يختفى ، وفكى الايسر ينام فزعا فى حضن الكتف المرتجف ، وذراعاى أتأملهما بحسرة الذى اكتشف أنهما لم تعودا ذراعيه ، وشفاهك تتكور بالـ ( ) مستحيل ، والعالم يحمل وجه يهودا .



عندما كنت (   ) لم أكن أعرف ذلك . كنت ابتسم
فقط ليبدأ كل ما ابتسم له صراء عاشقا من أجلى أبـــدا لم
يكن كيوم أن جئت لك وجســـدى جمرة تتنفس فى فيض من
الهواء السخى ، مجنونا بالاحتراق ، ورغبة الرماد المعمـــر
فى أن يصحو ، أن يستعر أن يجن بينما هو يتصاعد عاليا ،
ويدى تطير لتلتقط يدك ، وعيناى تفردان أجنحتهما لتنـــاما
فى عشك فاذا بالباب يبدأ فى الاغلاق ، وأحس باللحم يثقل
فجأة ويتعرض للتدمير اذ بدأ يفقد جلال صحوه الابدى .
لكنى لم أكف عن ادامة الرفيف والتحديق موغلا فى الاقتراب،
وانا أخنق الصرخة واصارع نهش الاستغراب المتوحش .
وتحول كل هدب الى يد تتحسس بابك الموصـــد بلا سبب
فلا أجدهما زرقاوين . وان كانتا رماديتين كما رأيتهما فكيف
ملكتا الزرقة التى اسودت فى عينى أمى كل ذلـــك الزمن ؟
وطفقت اسأل الـــ (   ) هويت للغرق قبلما اتمكن من
الصراخ ، وشفاهى تتلوى بلا جدوى . ثم تستسلم كل منهما
ملتصقة بالاخرى فى صمت . وعيناى تتبعان أقواس الشعر
التى تليق باستقبال الاله ، وهى تستدير وتبتعد وعينـــاى
مصلوبتان على آنهما . تتأملان للحظة أخيرة قبل الغـــرق
الابدى : الانهار التى أخذت تتأرجح بعنف خلفك ، وانت
تبتعدين بها ، تاركة طوفانا حارقا من الجدب يندفع زاحفـــا
نحوى ، وأنا أشرب رغما عنى عطش الصحارى اليتيمة دون
تبرير عادل يا (   ) تلاشى التأمل حتى اقتصر على
العمى ، وخلف العمى عالم كان يولد لى فانتزعـــوه منى
وأودعوه الصمت . لكن صمتى لا يقبل ذاته ، فليس محتملا
أن نكتشف أننا لم نكن نملك عالمنا ، وأننا فجأة نحسبالاشياء
وهى تنفلت منا ، والشىء الوحيد الذى يتبقى ، الوحيـــد
الذى يتبقى : عرى أصابعنا البارد . وأن كل هذا العالم
الذى نحس به تحت أصابعنا كراس طفل يستجيب لحناننا ،

يستحيل الى راس داعرة تتحدى اى حنان يحاول ان يحتويها بسخرية هازئة صلبة لا تملكها الا داعرة تجيد هدهدةالرجال لثلاث دقائق تجيد بعدها نسيان أنها رقدت تحتهم ، أو حتى رأتهم فى حياتها وادير راسى لارى بوضوح عينى وهمــــا تنسلخان عنى ، وتتسكعان بعيدا وتسقطان على وجـــه الارض ، حيث الالوان الكالحة ، والوحل الدموى القاتم الذى لا يجف ، والطنين حول راسى يبدأ نشيدا فارغا تحت الشمس الرصاصية ، يشتد ويخفت لكنه لا يبتعد ، وتتدحرج العينان ببطء ليس لتتأملا ، لكن لتلتقطا أنفاسهما فى مواجهة الاشياء . والحدة فى جوانب الاشياء تجرحهما ، وتجعل جســـــدى يرتجف ، غير قادر على أن يثبت فى مكانه ابدا ، واحساسى يثقل بالشراع المشدود للابحار وحباله تنقطع ويبدأ يهوى فى التراخى دونما ابحار . وصوت الموج يتخلخل فى العالم الضحل ، والعودة للوقوف فى المخاضة التى تبول فيهـا الخنازير ، والتى لا يعبرها انسان الا وغسل قدميه من آثارها قبلما يمضى .

وتتدحرجان ببطء تحت ثقل الفزع ربما تواجهان شيئا أقل حدة ، واذا بهما تتوقفان عن التنفس تمـــاما ازاء مـــا حـــدث :

جف ما فى التى كانت كائنات فعادت تتحزم حـــول نصف طولها ، وترتدى أكماما طويلة فى سيقانها وتتحرك ، فيقفز الغبار من الارض ليدوم فى الهواء ثم يعود ليســـاقط فوقها فتستحيل الى لون الارض والشمس نفسها بعـــد أن انصهرت وتجمدت استحالت الى شحوب أوغل فى العتمة حتى السواد ، ثم هوت فى برودة الرصاص . والاشياء ذوات الاطراف لا تسكن أبدا . ربما تسكن اللحظة ، لكنها تعود

للحركة وهى تحرك اطرافها واحيانا اطرافها دون أن تغادر مكانها بينما تصدر اصواتا غريبة متباعدة . وكل منهم يصدر صوتا وحده . واقتربت منهم بحزن . فجعلوا يمرون قريبين جدا من وجهى كما لو انهم لا يحسون بى . وافظع من كل ذلك ما صدمت به مرة : فقد حدث أن رايت شيئا يجرى وراء شيء آخر ثم اشتبكا معا ، وصارا يتصارعان حتى أوقعه الشيء الذى يجرى وراءه على الارض . ثم رأيته يفتح ساقيه بعد أن أوقعه ويرتمى فوقه ، والشيء الملقى على الارض يتأوه فى استسلام حتى نهض الشيء الاخر واقفا وبصق عليه ثم مشى مبتعدا عنه . تألمت للشيء الملقى على الارض فظللت انظر له . رايته ينسحب وينزوى بجوار جدار حجر وبدا ينفنح . بعد فترة اخذ يصدر صوتا يشبه الانين وهو يمسح على انتفاخ بطنه .

وبعد فترة طويلة من الانين الصادر عنه رايته يشحب تماما ، ودرجة صراخه تتغير وتتسارع ثم تمدد على الارض ورأيته يرفع ساقيه الى اعلى ويأخذ فى صراخ عال جعلنى أكاد اجرى بعيدا حتى لا انعذب بسماعه ، الا أننى تسمرت مكانى ، اذ سرعان ما لمحت شيئا صغيرا جدا يظهر من بين ساقيه المرفوعتين ثم تمتد منه أربعة أطراف صغيرة وراس ، وفوجئت به عندما انطلق جاريا نحوى مصدرا صراخا صغيرا مادا يده الرفيعة ذات الخمسة أطراف الصغيرة جدا : ابت ، اعطنى خبزا !

صعقنى الادعاء ، وودت لو أبعده أو أصرخ فيه أو أضربه أو اجرى منه ، واستغربت نفسى لما اخذت اتأمله فى صمت وشعره الليفى يكبر ويتخذ لون الرماد وأنا اتساءل دائما وأنا ملتصق بالارض ومؤخرتى تؤلمنى ومع ذلك لا املك القدرة

على النهوض : ما معنى هذا ؟ رفعت راسى بغية أن أتنفس بالسؤال فلم اجد اية سماء تمنحنى قبضة هواء نقيـــــة ، وكنت أريد أن أسأل بصوت عال لكنى لما جوبهت بذلك عدت ادرك أننى امام الــ (   ) بلا أب ، وأن أى ســـؤال سأسأله سيعود محترق الاجنحة ، رفعت جبهتى فى جبهة الــ (   ) رأيت حوائط اللا جدوى منتصـــبة بينى وبين العالم . وبدأت تسقط حتى الرغبة فى السؤال عن الجدوى، ما دمت قد عثرت عليك لافتح راحتى فأجد أصابع يدى عارية منفردة فى تراخ كأرجل جواد انتهت من شوط خائب . أخذت أحدق فيها بحماقة امنية أن أعود أزرع وجهت بين حنانهما فأفاجأ بلا وعى . بأنهما قد عادتا ملعونتين : اقتربت كل منهما من الاخرى دونما رغبة ، كحيوانين قزمين من جنس واحد لم يخلقا مثقوبين ، وليس بين ساقى كل منهما مفتاح المدن الموصدة . لذلك فهما مرغمان بدافع مجهول المكان والمصدر على أن يتقاربا تحت الضغط المهين للفقد ، وكل منهما ملعون، ويعرف أن الاخر ملعون أيضا ،والتقارب بينهما يغدو لعنة تجمعهما معا . والاصابع تيأس فى البحث خارجها فتستسلم . وأرى كل اربعة أصابع تتجه فى انكسار الغزاة المرتدين نحو فراغ أصابع اليد الاخرى ، حيث تدخل حانية رؤوسها ، وتركع ، ثم تنثنى صافعة رؤوسها بظهر الراحة الاخـــرى الصخرى صانعة سجودا مميتا معلنة به هزيمة البحث أبدا، طالما أننا لم نحفر لنا منفذا آخر فى جدران الطريق الجرانيتى المنحدر مؤديا الى قاع لحد . واصبعاى الكبيران ينهضان قائمين معا بجوار بعضهما ليسدا الفوهة التى تؤدى الى الفجوة التى سقفتها الاصابع فاستحالا عمودين لبــــاب المقبرة ، وبينهما فتحة فرج أسود تؤدى الى رحم التابوت . ولم أستطع أن أدير عينى عن هذا الــ (   ) يا عبث الايدى التى أرادت أن يولد العالم ، فأحالها العالم مقبرة .

وحتى التابوت يرقد بحضن راحتى ولن يهدأ ابدا ، لانه لن يدفن فيه ابنى . سيظل تابوتا معدا لكائن يموت ولم يصرح له بالدفن . وعلى ان ارى ابنى ميتا امامى كلما وجـــدت التابوت براحتى فارغا ينتظر . وكلما احسست بوجودك اشم بقوة فظيعة رائحة موته كلما مرت سترتك الداكنـــة الزرقة وشفتاك لا ترحمان ابنى ، ولا تتركانه لى كى ادفنه، ودائما مطبقتان عليه كل ما استطيع رؤيته لا يعدو الفاصل بين الغطاء وقاع التابوت الذى جفت منه العصارة القديمة التى ربما كان يفهمنى لو كانت ماتزال تمرح فيه .

وارفع راسى لاقول لكم بصوتى المفقود بعد ما طفت بالارض الخراب من خلف شفتى الملوثتين بالرماد (   ).

« عندما يقولون لكم ذهبنا الى المقبرة ورأينا الحجـــر الذى يسد الباب قد تدحرج لا تصدقوهم ، فلن يتدحرج ، وعندما يقولون سوف يعود لانه قام ، لا تنتظروا . لانني من يوم ان مات ولدى مات ابى ، مت . فعندما يقولون لاتصدقوا، لاننى انا الذى اقول الان .

وعندما ترون الشمس تصلب وتسقط كل يوم والعالم يمضى منكس الراس ، حاملا كل احتجاجه مقتـــولا بسكينة اليتم ، لا تعودوا تذكرون أن العالم معشوقة للذى صلبوه وأنه سيكون يوما أبا ، أمضوا حاملين يتمكم ، وقفوا امام العـــذارى اليتامى ، وليختر كل منكم يتيمة ويأخذ يدها فى حضن يده ، وعندما تهتف به والدموع فى عينيها : ابت ؟ فليهش لها ، ولتكونوا آباء أولادكم .

يقول لكم ذلك ، لانهم ، قبل أن يرى أباه عندما اراد ان

يكون يوما ابا ، شدوه ، بعد ما رفعتـــــه ارادته ، على الصليب » .

ويدور سيخ الشواء ( ) نشوى وننتهى الى لا شيء ( ) حتى اللا شيء ربما لن يكون موجودا ، الا شـــيئا واحدا يا آذانا طينية ( ) لن تستطيعى أن تديرى عنه وجهك الطينى ابدا مهما هرب فى الطين :

صوت وقع الخطى السائرة للافنية الخلفية ، يتساقط ليدفن فى الرتابة ، مجرجرا صداه ليغوصا معا فى الارض رائيا كنبى تعس كل انتفاضات غبار الطريق الرمادية تبهت، تستحيل الى جليد يشحب تحت الضوء الابدى الســـاكن حيث ستدفن كل الاصوات وتدفن جثث رغباتها معـــا فى الـــ ( ) .

ولحن الجنازة يتلاشى ( ) ويظل محلقا صـــوت ايقاع واحد معتوه ( ) لا ينتهى ( ) لا يبـــدأ ( ) لا يسمع .

(يوليـــو ١٩٦٦)

جحيم أبد الرحيم

« سيقال يوما ما ، يوما مذبوحا كالعادة ، حدث أن استعر سؤال فى شفتى طفل . وكان صــوت الصـــدق القديم . وتحررت الطيور فاندفعت آمنة فرحة بالانطلاق ، والفوهات كانت متربصة ، تنتظر بالاصابة صوت الاجنحة الفرحة الغازية بالشوق قلب المذبحة ، وازاء القلب تماما ، ثقب الصدر حارقا دائرة ضيقة من الزغب الفرح ينبوع دم منبثق . واخذت الاجنحة تتنفس بقوة ، والعينان اللتـــان اخذتا غدرا وهما تحدقان فى سماء صدق أخذ يموت . ويأتى الحزن كالغرق فيهز الطائر رأسه دون تصديق لما يقع . ثم تتراخى الاجنحة سائبة بلا رفيف ، مسلمة نفسها للسقوط . ويظل وجه الطفل مدارا بالدهشة وفمه الفاغر محشو بجثة صمت ميت . وسوف تظل الكلمات تذبح كالايام أيضا .

فيا قدرنا القادم بدون خطى : ستقام المذبحة ، انــا نعرف ، لكن ما لن يحدث أبدا ، حتى لو أغلقت أفواهنـــا رغما عنا أن نغمض عيوننا ، وسنزوى فى عتمة الاركان المقبورة ، وندفن ، لكن على ظهورنا ، لتظل وجوهنا مدارة بفجوتينا السوداوين اللتين ستظلان شـــاهدا لا يمل ادانة العبث » !

***

وقعنا(*) مواجهة الاشياء المنتصبة فىبرود .وعواصف النار التى تجتاحنا حتى تلاشينا عواصف الوان حولهـــا .

(*) مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلا ، بل امتلاء غير مرئى بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها .

وقوف وسطها ومفاصلنا سائبة . والظهور المنتصبة تلقت الضربة ولم تجرؤ أن تحتفظ بانتصابها لحظة أن سقطت . لم تملك ان تحملق فيها ولو للحظة . فلحظة جاءت وراء حدتها المندفعة بكل ثقلها حارقة استمرار الفقرات ، انقصمت ظهورنا . وانطوينا بنصفنا العلوى تجاه نصفنا السفلى ، طاوين شروعنا فى أن نظل وسط هذا العالم ، نتجول وعيوننا تبرق فى الطرقات . متطلعين الى الامام ببريق متصل ، والى اعلى ببريق الفرح الشاسع ، حيث الغموض الازرق يشدهاماتنا دوما ، جاعلا أقدامنا لا تكف عن الحركة والدبيب ومواصلة الخطو يلهب اعناق أشواقنا بالرغبة فى ان نغزو الاشياء كلها : رحم الارض . مصير الامواج المبحرة قمم التحدى الشاهقة ، متاهة الاصغاء الـ ( ) استحالة الله . لكنا صحونا من الوهم لنسقط فى ( ) وأسره لنا . ومحاولة ملاحقة الايدى القادمة وأرجلها تخوض فى الهواء :

ــ شد حيلك .

يظنون أن ذلك يعزينا ، وأيديهم تمتد تشد نفسها حول يدى .

ــ البقية فى حياتك .

هراء . بعد أن نموت لا يتبقى من عمرنا شىء .

ــ كل من عليها فان .

يا ببغاوات تتغنى بهزيمتها .

ــ هو الدائم .

— هو الدائم .

— هو الدائم .

نحن نمـوت .

— ......

وخفت ان اسوطهم بغيظى فأخذت اهز راسى وفى داخلى يذبحنى السؤال ' ما جدوى ان يكون هو الدائم ؟

ونفدت الايدى فانتهى تبادل كل ما هو متعارف عليه وميت . كلمات قديمة فى جفاف السمك المقدد لا تجد سواها عندما يحاولون أن يعطوك ، ولن تجد سواها عندما تحاول ان تعطى . لعبة مفضوحة لكننا لا نملك غيرها . ننسى ساعتها للضرورة ونتبادلها . وعندما تنتهى الضرورة وينفض الناس تنزوى الكلمات فى الاركان .وحين نسمع بضـرورة جديدة نجرى اليها ونحملها ، ونبذل جهدا يائسا فى جعلها حية . ننطقها وملامحنا صامتة . ولا يدرى أحد شيئا عما فى صمت الملامح .

مضوا . واكتشفت ، وانا أرقب ظهورهم ، العـالم الذي استحال الي فظاعة تمارس . وهى لا تمارس بعيدة عنا ، لكنها تدفعنا رغما عنا من داخلنا لاعداد كل ما يـلزم للموافقة على ما يحدث . لا أحد مات وأصر العـالم على الاحتجاج . كلنا نموت فنهرع فى بسالة لنحفر قبورنا ونشترى لانفسنا الكفن بسعر مرتفع ، ونصيب البرق بالسـعار أو نعلنها فى الصحف ، أو نذهب سيرا على الاقدام . ندعو كل من نحب وكل من نكره ، نجمعهم من الطرقات وأمـكنة العمل ، ومن البلاد البعيدة لتكون الجنازة أكثر ضخـامة

ومهابة . وكلما كانت مراسيم الدفن كاملة وممارسة بأحكام، ازداد زهونا ، واحسسنا بأننا ادينا واجب تأليه قاتلنا ، والاحتفال بتأليهه وسط الميادين التى تفيض من اجله بالكائنات البشرية . والضحية فى المقدمة مستلقية فى الصمت ومغطاة بالملاءات الواسعة المعتمة الثقيلة التي تنسدل فى جلال فاجر واستسلام تدرى للقاتل نحيط به الضحية ، وجثثنا تملأ الميدان والطرقات المؤدية له ، والشرفات واعالى البيوت مكتظة بهم ، ليست كائنات بشرية حية ابدا تحت هذه اللحظات انها ليست سوى جثث ضحايا آتية . مستقبلها محاصر فى الراس الذى نراه شاخصا فى الجثث قبل أن تستحيل الى جثث . لو نظروا فجأة نحو ابدانهم المتحركة وراءه لرأوا نقاط الدم الشاحبة المرشوشة بغزارة تكاد تغطينا بأكملنا ، والدماء الحية فى قلوبنا ترتجف وتنتفض بالذعر وتكاد ترفض ان تخرج للأطراف وسطح الجلد . ونمضى بلا دماء ، حاملين فى ابداننا الجليدية انتظارنا لطعنة القاتل المؤله .

اغمضت عينى علنى استريح للحظة من مواجهة البشاعة . لكن الانسان لا يستطيع الاستمرار فى ذلك فتركتهما كما كانتا مفتوحتين بشدة تؤلمنى . وبرغم ذلك لم تعودا تريان كما كانتا من زمن بعيد . ثمة ما يضرب بين الاشياء ، يفصلها ، يجعلها مختنقة بغلاف فى العتمة . لم يعد ثمن وضوح راسخ ، حتى حوائط ما نحتمى به ليست سوى امتداد فى الهواء وتحت الارض الى مدى قصير . وفى لحظة ما ، طارئة وغير معقولة ، مع انها ليست أيضا غير محتملة ، تجيء فتغلف العالم بعاصفة من الغموض ، ثم تنحنى وتقتلع بسهولة تحت خفاء الغموض كل ما يقع تحتها : الناس ، حوائط الاحتماء ، الاشجار ، بالسهولة

نفسها غير المعقولة التى تفقد بها انسانا كان . وتتكلم عنه الان .

يا نارى .

أطلقتها خلفه . ثم انطلقت خلفها (   ) ابدا ليس من السهل أن ترى كل شيء يقتلع وتظل أنت ثابتا لا تقتلع . حتى لو ظللت متوجا فى مكانك . فأنت لن تعود تحس بأنه مكانك . انه ساكن . ليس تحتك . أنت الذى تتوهم أنك راسخ فوقه . هو مغطى به لا يعبأ بك . فأنت لا تدخل فيه . وهو لا يمكن أن يسقط فى أسرك . بل انه يصفعك بأبشع صفعة يمكن أن تهينك فى العالم . انه ليس مكانك، أقدام كثيرة لها رسوخ الاعمدة الحجرية ماتت وسقطت حيث تقف . وأنت نفسك لو استطعت أن تظل ترى ، سترى الذين سوف يمرون ويسقطون بعدك . مرور وحسب للسقوط فيه . أو على الاكثر مرور للسقوط فى مكان آخر . وطئك للارض لا يعني أنها أرضك . بل حتى لو أحطتها بأسوار من الاسلاك الشائكة المكهربة فانها كذلك لا يمكن أن تخضع لك . تستطيع أن تتصور انك سيدها لانك تسوطها كل يوم . وتغتصبها بالمحراث وتجبرها على الحمل بأن تغرس فيها البذور ، ولكنك لا تملك أن تمنع نفسك من السقوط وأنت تقف وسطها فجأة ودون أن تستطيع الاستناد الى أى أحد بل أى شيء . وعندما تسقط وتسكن ستفقد القدرة على أن تعى فقدك . وتهش الغربان لك . وتهدى للدود فى الخفاء . وتظل سوقهم تشرع فى النمو والانتصاب دون أن يدركوا أنهم زرعوا بلا جذور . وأنهم لا يستطيعون أن يظلوا . وأنهم حتما سيسقطون وبين أقدامهم خطوة لم تقطع بكاملها ابدا .

آه .

انصبت بها النار بجنون طاغ يجعلها ناتى مجناحة بالحريق كل ما تمضى عبره . لم تشتعل ابدا كما اشتعلت فى الداخل لحظتها . آه لها وجهه وذراعاه وصدره وساقاه. تلم ملامحها وتتعذب مغلقة عينيها وتنفجر : « يا أماه » . فأسمعها تحترق : « يا نارى » .

وتندفع المخالب تحتضن النار ناهشة أثداءها من فوق الصدر غائصة فى جراح اللحم المحترق بالداخل ، متراجعة للخلف ، مقعية على الارض ، متمرغة به والاصوات لم تعد أصوات بل ثقيلة وقاسية كالايدى . تمتد من أفواههم المثقوبة وتمسك بها من كتفيها وينقطع الصراخ فى وجه دائرة الايدى. والرؤوس العديدة لابد انها لا تسمع صوته . وحدها تسمعه . ودائرة الايدى تصرخ فى لحمها فيختنق صوته ومخالبها ترتعش ولا تترك أثرا فى وجوههم . كانوا يملكون جلدا كحيوانات فقدت حسها فاستبدلت به جلدا ميتا . ومن فوق دائرة الايدى يعبر الصوت ويسقط فى حجرها : « يا أماه » وتحتضنه : « يا نارى » . « يا نارى » (   ) لا جدوى . لا الاغماض ولا الصمت (   ) نتراجع؟ نحن لا نملك . حوائطنا ملتصقة بخطانا سجوننا تتحرك فى (   ) لا مفر . يا (   ) أبدا ! كنا نأمل فى جحيم أقل . لو من الممكن أن يكون جحيما اقل . هذه الايام الطويلة من (   ) آه . من الجحيم ، تتساقط . وحسبما قال كثيرون. ظننت أننا سوف نعود للنوم . فنسقط فيه وتظلم الدنيا . نصحو ونعرف من ابيضاض الحوائط وأصوات المباعة أننا غرقنا فى النسيان خمس أو ست ساعات . وأننا لابد من أن نكون قد استرحنا . وأن تكرار ذلك لعدة مرات سوف

يعودنا النسيان ، وأن الزمن دواء كل من لا دواء له ، لكن ذلك لم يحدث . وضعت لها حبة فى كوب الماء وابتلعت انا حبة اخرى ، واطفأت نور غرفتها وأغلقت عليها البـــاب ومضيت الى سريرى . واشعلت السيجار وحاولت أن اتأمله وانا ادخن متشبثـــا بالسحابات الرمادية التى تنـدفع بقوة وتتصاعد لتتسع وتشحب شيئا فشيئا حتى التلاشى . لكنها حتى فى التلاشى لا تغادرنا . انها تحلق على الجدران وتحت السقف ، وتظل مع الاحتراق تهبط نحونا . تطبق شـــيئا فشيئا على تنفسنا وعاد وجهه وتقلب فســـمرت ناظرى ثانية بلفافة الدخان اتأمل غلافها هذه المرة بكل ما أملكه من قدرة على التركيز حتى لا يفلت منى تفكيرى . لكن عينى زحفتا حتى الطرف الملتهب فعاد وجهه يتعذب وعدت أرتعد . قمت وســـحقت الطرف الملتهب فى قاع المطفأة لـــكنى لم أكف عن الارتعاد .

كانت الغرفة معبأة بالدخان والموت . فكرت ° للغرفة نوافذ . فتحتها فجعل الدخان يتسرب ، لكن الموت لم يتسرب، فعدت أختنق بالادراك : ليس لعالمنا نوافذ . عرفنا ذلك منذ وقعنا خلف الانتظار . منتظرين أن يرتفع . وما وراءه يتخفى به . مغلق الفم فى رحم الصمت المجهول الملامح . لكنه كان سيأتى . وان كنا نتأرجح بين هوى الخـــوف وحواف الرجاء ، الا أنه كان سيأتى ، ولم نكن نعرفه ، الا أننا كنا ننتظره . كان اليأس والامل يرفرفان معا فى انتظار مجيء الاتيان ، فالانتظار سميك الحوائط ، راسخ كعظام ضلوعنا التى اطبقت بها على رئاتنا الضربة . والرغبـــة تنسحب مضغوطة تشد نفسها من شق شديد الضيق عليها، لاتنى تدور فى مكانها ، متمردة على الوقوف ، ضـــائقة بالاسر بين حوائط الانتظار الصلبة اللامبالية . حوائط فقدت

الاحساس بما فى داخلها ، تراها قابضة وحسب لا تتسع ولا تسحق ، وما يرتفع ويصخب باللهب ليس سوى داخلنا ، والرغبة تبدو مسعورة لاهثة ، والضيق : المتنفس الوحيد مسدود النوافذ حول الذين تختنق عيونهم بالظلمة وتستجدى ما بين النوافذ المسدود بالطين وما بين الحوائط أن يتسع أن يضيء . ترى منه ما سوف يجيء . وايدينا مطرقة نحـــو الارض ، تصغى للصمت . ثم تسعى كل منهما ملتصـــقة بالاخرى على ذلك يوقف هذيان الرعشة الخائفة ، لـــكن لا جدوى . كما لو كان الذعر فى الداخل لا يأبه بكل ما هو خارجه . طاغية لا يكف عن طغيانه الا اذا كف هو عن أن يطغى . وحين شق الظلمة تقاطع الاضواء ، اجتاح الذعر كل أرجائها فكففنا عن التـ نفس ، وكم رغبنا أن نكف عن الارتجاف حتى يمكننا أن نرى وجه ما بدأ يأتى :

سحبونا من أيدينا التى أسلمت نفسها لهم . وظللنا نجتاز ، كما لو كان ذلك لدهر بأكمله ، ممرا ، مظلمـــا ، مسدودا بباب غرفة موصد . وقفنا حيال الباب الموصد : هى الغرفة ، لا شك . رأيتها طفأة الانوار فانطفأ من كـــل الوجود . وتساندت أسنانى مذعورة بعضها من البعض الاخر وسط عاصفة باردة من الخوف .

وانفتح الصمت عن شيء ملقى ، سلط عليه فور دخولنا مصباح حارق . استبد الصمت ثانية ويد تنتقل من فـــوق كتفى لتحلق فوق الشيء الملقى وتظل محلقة فوقه . والاصبع يحنى عنقه الطويل ويسير محدقا فيها كلها : جثة . وينتقل: جثة الرأس ، جثة اليدين ، جثة الذراعين . جثة البطن جثة الساقين . ثم يدور حولها كلها : جثة الجثة . اليس ؟ لكنه ليس فى مكان آخر . ليس خلف الجدران ولا النوافـــذ ولا

الابواب . وليس فى البيت الان . وليس عندها ، وليس بين اصدقائه ، وليس فى الطرقات ، وليس فى احدى المركبات ، وليس فى حجرته ، وليس فى الغرفة ، وليس فى الجثة .

ـ لا .. ليس .

ـ انه هو .

ـ لا . ليس هو .

ـ اقسم يا سيدى أنه هو .

ـ اقسم انه ليس هو .

ـ لكنه هو يا سيدى . وهذه هى بطاقته . أنظر .

وفتحها . وتمنيت أن تنقض على صاعقة وان أذهب أنا مقابل ألا يكون .

ـ اليس هذا اسمه يا سيدى وهذا اسمك ؟ وهذا اسم الام ؟

ـ لكنه ليس هو .

ـ لكنها بطاقته .

ـ لتذهب البطاقة الى جهنم .

ـ تحمل يا سيدى .

ما طاقة الانسان حتى يتحمل هذا ؟ أنا أعرفه . لو وقف أمامى الان خلف شارع مكتظ حتى نهايته بالناس فسوف أرفع راسى وأراه وأشير اليه .

ـ اقتنعت يا سيدى ؟

تأملته بغيظ وهو يريدنى أن اقتنع واخذت ابحث فيها عنه : امسكت بجثة اليد . لا . رايته فجاة وهو يحط على غفلة فوقه صامتا محدقا . لم يسبق ان راينه . كان ليـــل العالم على جانبى منقاره الاسود الذى يغمغم بأنه انتقل الى ملكيته . افتح فمك . أرجوك . حرك شفتيك . لا جـــدوى فالمنقار لا يرتفع . والليل على جانبى منقاره يهطل . يغمر كل ما تنفتح عليه عيناى . ويظل يغرقنا . ولا يتوقف عن اغراق جدراننا الراكعة ، الساجدة ، الملقاة ، يزيح بقاياها ويحط هو . ارفع راسك ولو مرة واحدة . الا ترفع راسك؟ لا تستطيع الان ؟ ولا غدا ، ولا بعد غد ؟ يا (   ) لو تحرك اصبعك ! حركة ، وسوف يطير هذا منها . لكنه اخذ يحدق فى ببرود قاتل من فوق الجثة حيث حط . أدرت وجهى بعيدا عنه واغمضت عينى . قيودك تكبلنى . زنزانة الصخر حولى : صمتك .

سقطت جثتا اليدين من يدى . سحبتهما محموتين . من على الجبهة الثلجية . وتحتها عينان لا تسمعان . ساكنتان بلا رؤية تحت الجفون المطبقة . مددت يدى معا على جانبى جثـــة الوجه . وبكل من ابهامى أزحت جفنيه معـــــا الى اعلى . اجتاحنى الحريق الثلجى للنظرة فجمد ابهامى على جانبى راسه ، واغلقت عينيه ثانية بذعر . كانت النظـــرة تنبع من هناك ، من خلفنا ، من كل ما وراءه خلف ، حتى كل ما لا خلف له ، الخلف الاخير الشاسع الذى لا يكف . يتركنا لنأتى بهم ، فننحنى بعمرنا ونضعه تحت ســــيقانهم الطفلة . وكلما نزفنا معرنا استطالوا . وكلما أخـــذنا فى الانكماش على العظم وتساقط الشعر من فـــوق جماجمنـــا

ازدهر الشعر فوق جباههم ، وكلما منا ، يحيون ، نركنا نقوم بالصفقه كما اتفقنا ، وكما اتفق كل الناس ، ان نقبل الصفقة بدلا من ، موافق ؟ موافق ، لم اجد بدلا من غير ذلك. هات و رحت واعطينهم كل ما املكه وجئت بها ، لم تكن مناسبة تماما ، لكنها كانت مناسبة ، كنت اعرف انني اذا ظللت أبحث عن المناسبة تماما لن اجدها ابدا ، ليس ثمة علاقة « تماما » بين الارض والبذور ، أقصد علاقة سابقة. فالعلاقة لا توجد قبل العلاقة ، انها توجد وهى توجد وقد وجدت بيننا منذ زمن بعيد ، وضعناه ، خرج وقال لن أتأخر ، وقلت لها انني سآتيها به ، وها انا سأدخل وعلى وجهي غراب الاصوات ، وستدير رأسها لتراه هو حسبما اتفقنا فتفاجأ بالليل الذي يهطل على جانبي منقاره ، وعندما ستصرخ من الرعب ولا تستطيع عيناها أن تغادراه ، سيزعق فيهـا ، سيشلها بكل ما يطلقه عليها من غربان ، وستطرحها الزعقة منكفئة على وجهها وسيظل يزعق على مؤخرة رأسها ويحدق فيها من الخلف كما لو كان يواجهها واشد قسوة . كيف سأنقذها يا (   ) وقعنا (   ) انفتح كل ما هو خلفنا وصرخ غراب الاصوات وهوينا ، ليس ثمة انقاذ . ماذا سأقول لها ؟ يجب الا تصرخ ، أعرف أنها ستنكر ، أنا معها ، الجثة ليست هو ، لم نفقد كل عمرنا كي نتركه لنا في العالم فيرده العالم لنا ومازلنا أحياء ، جثة ، أعرف . أعرف ، أعرف ، وحنيت رأسي حتى جاءت العربة .

فتح الباب فجوبهت بها وسطهم ، موجة السواد المنحنية نحونا ، ليست ثمة وجوه فوق الملابس ، ليس سوى كتل حمراء من اللحم الغارق في النحيب ، وصعدت أيدي الرجال وأصابعهم ملتوية في جوف العربة ، ثم هبطت بالقماش الممتلئ المدد الطويل ، « يا ناري ، يا ناري ، يا ناري » .

امسكوا بها واصابعهم ككلابات فى جسدها الـــــذى لا يتعدى حجم طفلة مسلولة تعض فى كل مكان من جسدها كلابة . وشعرها القصير سقط من فوقه الغطاء فبدا واقفا كله يواجه الفظاعة التى اجتاحته واحرقت غطاءه ، عيناها تبرزان لتطلا على الـــ (   ) يا للمــوت ! لم تتكن تتأمل وجها واحدا ، كانت دوما تحدق فوق رؤوسهم ثم تنقض بكل الكلابات فى جسدها وتشرع يديها معا فوق رؤوســـهم واصابعها تنفرد بكل اتساعها . ويكاد جسدها يندفع طائرا كورقة تحترق ثم فجأة تنثنى أصابعها كلها متشبثة ببـــاطن اليد ثم تنفرد بقسوة لمرات عديدة بجنون يائس لتنتــزعا من السماوات الفارغة شيئا لا يوجد . ثم تدير راسها الى ناحية ما وتسكن سكونا مذهلا وعيناها ناحية اصغائها وما تزال يداها مرفوعتين رغم الايدى العديدة التى تحـــاول ان تثنيهما عما تريدانه . وفجأة تصرخ فى كل الوجوه دفعــــة واحدة ومؤخرتها المتلاشـــــية تتراجع للخلف ، وساقاها العظمتان تتصلبان ممتدتين على الارض وهى تنحنى بالصرخة وعيناها الحمراوان تحترقان فى الذهـــــول ثم تنكفىء حتى يصطدم وجهها بالارض وتحدق فى الـــ (   ) : « يا نارى، يا نارى ، يا نارى » .

لبثت مديرا رأسى للحائط ووجهى مغطى . والمصباح خلفى وخلف الغطاء مضاء . وكنت أوشك على فقــــدان الصحو ، والسقوط فى الذهول والظلمة . وسمعت الجدار يهتز فصعدت للصحو ثانية . سمعته يهتز للمرة الثانيـــة بعنف ، فرفعت الغطاء عن وجهى بسرعة وحدقت فيه وأخذت أصغى . امتد صمت طويل سمعت بعده الجدار ينتحب نحيبا ممدوداً فينفلت بصعوبة قاسية ، ويصعد عجـــــوزا نحيلا لها . كففت عن الاصغاء فتأكدت أنها هى التى تنتحب

فى الليل . لابد انه يتعذب امامها الان . وعلا صوتها فصعد امام وجهى يعانى عذاب أن يموت وشفتاه جافتان محترقتان ونداءه الذى لم يصل الينا ولم نسمعه ولم يجبه عليه أحد. وغص حلقى واحسست براسى يأخذ فى الاشتعال . خفت ان استسلم للنحيب فقمت من الفراش وسعلت بحيث تسمع هى ، وسكت الجدار . وضعت قدمى فى النعل ومشيت فأخذ النعل يحتك بالصمت الراقد ويفزعه حتى اخذ يصرخ. طرقت الباب وفتحته انا ، واضأت المصباح وانا اسألها — « اتنادييننى » ؟ . لم تتكلم . وظل وجهها بصمته مدارا للحائط لا يبدو مرئيا منه فى الضوء سوى مؤخر منديل الراس الاسود أما وجهها فكان كله فى العتمة ، مائلا منكفئا فى الفراش . وذراعها منثنية وكوعها تبرز تحت راسها ، وذراعها الاخرى ترقد قلقة متصلبة بين ساقيها النحيلتين المضمومتين اللائذتين ببطنها . « أتناديننى ؟ » . لم ترد للمرة الثانية ، وظل الصمت . اقتربت منها أكثر فرأيتها ترتجف . انحنيت عليها ولمست جبهتها بيدى وسألتها ان كانت قد نادتنى . فزع وجهها ناحيتى وفتحت جفنيها فرأيت بياض عينيها مسعورا يحترق . والسواد الذى استحال رماديا باهتا عاد يشخص للحائط ويبح : « لا » مبتورة ثم أطبقت فمها فسمعت أسنانها تطحن براسها كله شيئا يستحيل طحنه .

« كفى . أنت تقتلين نفسك » . ظل الصمت قائما . واستمر صوت طحن اسنانها غير المجدى وعيناها تحترقان بمواجهة الحائط « كفى . كل ما تفعلينه بنفسك لن يعود لك به » . تغير صوت الطحن . استحال بعد أن لوت رأسها وخنقت وجهها بالوسادة طحن نحيب ، صارت تأكل نحيبها وتمزقه فى داخلها . ثم رأيتها ترفع رأسها وتشخص للحائط

فى جنون . ثم تكف عن ذلك بسرعة وهى تغمض جمرتيها وتهوى خانقة وجهها بالوسادة ويشتد صوت النحيب الممزق فى داخلها ، والنهش ، ومحاولة التهام ما يلتهمها . واستحال صوت كل ذلك الى صوت تنفس حاد متقطع ينفثه أنفهـا المحمر الصغير .

ظللت واقفا مواجها به فى داخلهـا ، والليالى التى لا تنتهى ولا تتوقف ولا تكف عن الاتيان ولكنها لا تجـدى . تجىء . ربما يرقد الزمن بينك وبين من ليسوا منك . لكن من هم منك يرقدون بداخلك ، خارجك وخارجهم الزمن ، ولا أمل . غدا وبعد غد سوف يأتى ويجثم فوقنا كأمس وأول أمس ، ثم يمضى تاركا من يحل محله اقدام مردة تأتى وتطأنا ككل . ولا ادرى كيف تحملت كل هذا . ولا أدرى ان كان هذا يمكن أن ينتهى بالنسبة لنا . شددت عليها الغطـاء واخذت أكذب أمامها : « الله لا يحب ذلك . انك تؤذينه هناك هكذا . اصبرى وادعى له بالرحمة أجدى » توقف طحن النحيب وغاص فى الصمت . ربت عليها ، ومضيت . أطفأت نور غرفتها فسمعت الطحن . توقفت لبرهة ثم شددت الباب وخرجت فتعالى طحن النحيب من الغرفة المغلقة كلها .

وبالليل جاءنى . امتدت يده الى كتفى بيضاء كما كانت . وقف أمامى وهو يربت على كتفى مرات عديدة ، وشفتاه تستديران وتنبسطان ثم تلتصقان دون أن أسمعه وظلت عيناه أمام وجهى تبرقان فى العتمة ثم سال البريق فى خطين على جانبى فمه ، ويده ما تزال تربت بحنو على كتفى . أخذت يده فى يدى ، كنت أريد أن أعانقه لكنه لم يعانقنى . ظللت أتأمل خطى البريق الطويل على جانبى فمه ، وشـفتاه تعودان وتتكوران وتنبسطان . وأحسست بخطين ناريين على

جانبى فمى وصحوت . قمت وذهبت للغرفة لاحكى لها عما رايته فلم أجدها .

دخلنا بها فتركنا وراءنا الاصوات والضجيج الهائل . وظللنا نخوض فى الصمت . وسط الارض التىننساها فى الوراء . حبلى بالموتى . ترتفع بطنها بالاجنة الميتة فى كل مقبرة كالحة منتفخة مسدودة الثقب باحكام .

وفى كل مكان تهرب اليه عين الانسان لابد أن نصطدم ببطن فيه ميت . كانت البطون مكدسة ومنتشرة بفظاعة وتجاور مرعب . لكنه يبدو أكثر تجاورا وفعالية من تجاور الاحياء . هنا الزمن واحد والليل أو النهار واحد ، والانشاد أو الصمت واحد . كل منهم لا يملك أكثر من مساحة حجمه، بل من مساحة ارتكاز هيكله العظمى . هنا يحقق القاتل عدالته الظالمة بعدل . ولا يرفض أحد منهم التسامح مع وجوده كاله . ويستطيع أن يكون موجودا أو لا يكون فلن ينتبه أحد منهم لذلك أبدا .

وقفنا أمام بطن منتفخ مكتظ بموتانا . كان الحفار قد عرى ثقبها فبدا معتما مخيفا يحيط بالرعب نفسه الذى أحسسته وهى مستلقية على السرير فى الركن المعتم ، رافعة قمتى ركبتيها منزلقة بأسفل بطنها وردفيها نحوى فيجتاح الجفاف حلقى واكاد أختنق عند رؤية الثقب الضيق الموحش فى عتمته اللا متناهية . كائن بمكانه فى سهولة المستحيل ، مهيب فى الصمت مفتوح ومنتظر كما لو أنه يدرك تماما أنه رغم كل ضآلته أو ضيقه أخطر ما فى البناء كله ، وأوسع ما فيه . ورغم ضيقه الظاهر فهو أكثر سعة مما يتصور من يقف أمامه . انك مهما كانت ضخامتك فانك

لابد أن ترقد وتستسلم لسحبه القدرى لك ، لا الرعب ولا الصراخ ولا التراجع يستطيع ان ينتشلك مما تسقط فيــه . وعروها ، فعروه . والقماش الابيض يتخذ مكان الشــكل الانسانى . يخلى الانسان مكانه للمرة الآخيرة دون رجوع، يتخذ القماش شكله امام اهل الميت . خداع قاهر يضطرنا للاقتناع به استحالة تصورنا للفقد المزدرى لنا . نفعــل ذلك لنصدق أن ما تحت القماش هو ابننا . واننا اوصــلناه معه حتى أعدناه الى الرحم الدائم بأن مررناه من الثقب امام اعيننا ، وسددنا عليه بالطين . وعندما تأرجحت قوائم الوحش الثمانى خلفنا ورايته وهم يمضون حاملينه عاريا من كل ما غطيناه به ، كنت جالسا وقدماى ومؤخرتى غائصة فى تراب الحفر . استعيد مواجهة الضربة الثانية : قطعتنا بســهولة اكثر ومرت بسرعة . الاولى اجهزت علينا . رايت ذلك بوضوح عندما عدت يومها بعد ما تأرجح الوحش بقوائمه الثمــانى خلفى . وهو ، فقدناه . ولن يعتم مدخل الباب بظل نوره ثانية ابدا .

كانت جالسة فى هدوء ساهم مستســلم ، يداها متراخيتان فى حجرها . وراسها مصلوب على الظهر المنحنى تحدق أمامها مباشرة فى لا شىء ، كما لو كانت تــراه ولا تستطيع أن تنصرف عنه . رأيت جمودها أمامه فصعقت ، واجتاحنى الرعب للمرة الثانية حين اكتشفت فى وجههــا حفرتين معتمتين . لم تعد هى التى ترانى . لم تعــد عندما تدير رأسها تستطيع أن ترانى . بل لابد أن اكون امامهــا مباشرة كى تتمكن من رؤيتى . ودون ذلك تظل عينــاها مظلمتين جدبتين . ولما ادارت نحوى عينيها احسست أننى اسقط فيهما . لم يعد وجهها أملس ، وعيناها هما اللتان تلمعان فترى . اكتشفت فجأة أننا لسنا وحسب نســقط

بالموت الى الخواء ، بل اننا مطاردون بالخواء ونحن نحيـــا ، حين رأيت الوجه البشرى خاويا ، وان ثمة حفرتين تحت الجبهة لا تختفيان أبدا ، ولا تبدوان فى جماجمنا الا فى ظلمة المقابر وحسب ، ولكنهما كذلك كائنتان تحت الشعر المشط فى خيلاء وفى البشرة الناعمة الخادعة للوجه البشرى الحى : علامة يحفرها الموت فينا ليحدد بها محصوله فى هذا العالم، منبتا فى عيوننا رؤى الذهول التى تمتد كحقول الفطـــر ، قاسية الالوان ، مفتوحة القاع ، موجودة ومحيطة بنا حتى عدم ادراك وجودها ، والدهشة كاعشاش الغراب ، تنفتح وتبتلع كل ما كنا لا نندهش له . حتى البشر ، أقرب الاقرباء صاروا يلتصقون بنا فتجتاحهم الابعاد ويبدون لنا كأن لهم سطح الخارج الصلد . واشكالهم التى ما كنا نتعارف الا من خلالها ، ونقع فى الخطأ ، استحالت الى اشكال جامدة تحت غطاء سميك من الجلد وكمية هائلة من الدهن هى التى تجعل وجوه الرجال واقفيتهم ممتلئة ، وسيقان النســـاء ملفوفة بالدفء اللامع ، دهن كدهن أوزة ملقاة على قارعة الطريق وعنقها يلتوى تحتها ، وفتحتا عينيها مغمضتان على الرماد ، بينما تتعرض لاسنان كلب تمزقها . كان كائنـــا بجواره والجلد ملموم وملقى بجوار عظمة الساق ، والعظمة رهيفة ، ليست أبدا ذلك الجدار الذى كنا ننتصب فـــوقه ونضع قبضات أيدينا فى خاصرتنا بزهو أمام خصم . ملقـــاة فى اللحم الميت بلا أى أمل فى معاودة الانتصاب تشخص فى اللحم الذى سقطت فيه وتصمت . وهو الاخر لا يملك اكثر من أن يفقد شيئا فشيئا حمرة الدم الزاهيـــة ويستحيل الى الزرقة الداكنة الثلجية ليتبدد حتى ما يبقى ميتـــا منـــا فى النهاية .

وارتعدت فى عنف لكن بلا أية حركة ، الـــ (   )

يزحف . الجليد أصبح لا يعطى سوى جحيم الجليد ( ) تجمدت أحزاننا واختنقت بها السنة اللهب دون أن تنطفىء أو تبتعد . وأفيق الى اننى قضيت احيانا يوما بكامله وأنا جالس فى مكانى ، شاخص فى سطوح الاشياء أو سطوح الناس ببرود اخير ليس برود الغربة هذه المرة وحسب ، لكنه كذلك البرود الذى نكتشف بداخله فجوة الحقاره . العدم . الظلمة الخاوية الباردة ، جبل الثلج الراقد بداخلنا والذى يتهاوى أمام الجحيم ، والناس يهرعون أمامى ويصطدمون أحيانا بى . كنت التفت لهم واندهش لبرهة ثم اغلق فمى واهز رأسى : ما الذى يفعل بهم هذا ؟ ما جدوى كل هذه الضجة وهذا العنف ؟ بالاسلوب نفسه مات رجل كان يريد أن يدرك القطار فتعثر ولم يصح حتى ليرى نفسه تحت العجلات . أخذته على غفلة منه وانهته بسرعة . لما جرى ذلك ؟ ربما لانهم يحاولون الهروب من الوقوع فى خطأ يومى فيركضون بأنفسهم نحو خطأهم الاخير . « مات الرجل المكافح ناقص العمر » . هكذا علق الذى نقل الى الحادثة . ذلك المعلق مخدوع . ماذا يجعله ينطق بهذه الاكذوبة المتداولة ؟ ان أحدا فى العالم لم يولد ويترك ليحيا كامل العمر أبدا . كلنا نحيا بلا أعمار . اذا لم نجر وراء القطار لنموت تحت العجلات سيحدث أن نمر من أمام القطار ليمر فوقنا . بل حتى اذا اختفينا فى المناطق النائية البعيدة عن كل القطارات فسوف يجىء بلا قطار . انه يأتى كما هو .

التفت مندهشا الى رجل يمضى أمامى وفمه مفتوح على اتساعه ، واطرافه تتحرك بعنف . لويت شفتى ورحت اسأله عما يفعل . استغرق أكثر فى فتح فمه والاهتزاز بعنف والتلويح بقبضته .

ـــ قلت ماذا تفعـــل ؟

هدأ قليلا ثم حدق فى بشراسة وامسك بكتفى :

ــ ماذا تريد ؟

ــ قلت ما هذا الذى تفعله ؟

عاد ينطلق فاتحا فمه الى أقصى اتساعه ورفع يده وهوى بها على كتفى ثم أدارنى ودفع بى بعيدا . رغبت للحظة أن أسبه لكنى لم أفعل . قلت لنفسى أنه لا يستحق السب ، فسيكف عن كل شيء في يوم ما . انه لا يرى ما يجرى خلفه . لاننى كنت أرى ما هو مفتوح وينتظر فرصة يشـــده فيها من قفاه ليغلق فمه بشدة ثم يعود ليفتحه صارخا بـــلا جدوى . تنهدت وسئمت وأنا أحاول ان ابقى على اهتمامى بالناس لكنى شيئا فشيئا فقـــدت الرغبـــة واقتربت من الصـــقيع .

كانت العتمـــة تصوت فى المجرى بخفوت آسر دائم تحت كل صوت طارىء . والريح تطوح برؤوس النخيل فى عزيف حاد أسمع فيه بصعوبة مرور الريح بين الســـــعف والجريد ، وصوت الرؤوس السامقة المنتصبة والريح تميل بها وهى تقاوم . بعد فترة تهدأ الريح . تصمت فيطفـــو الصوت الذى يجرى دائما ، صـــوت العتمة فى المجرى . تشحب فيه رؤوس النخيل التى تحاول أن تستعيد انتصابها لكنها لا تستطيع أن تستعيد كبرياءها . لقد رأيتها عارية مرة، واى محاولة لاستعادة ما قبلَ العرى محاولة يائسة لا تثير سوى الرثاء الاجوف .

اغتصبت ريقى وأنا أحاول أن أجلس دون أن أتهاوى.

كانت راحة يدى منفردة على الحافة الداكنة وأصـــــابعى متباعدة ، وكل اصبع بدا ساكنا مهموما . ثقيلا على الارض، معلقا باليد لسبب ما ، لكن ما لا نستطيع الشك فيه أنه غدا سببا أحمق تجاه الّرغبة فى الانفصال والتباعد والارتمـــاء وحده . ولو أن شكله لا شك سيكون غريبا . بل قد يستحيل فجأة من مثير للشفقة وهو مبتور ودائرة العظم البيضـــاء ينهال عليهال اللون الاحمر من دائرة اللحم المقطوع الى مثير للاستغراق فى ضحك مكتوم وهو ملقى وحده بعيـــدا عن الاصابع المعلقة بالّيد كجراء هزيلة مقيدة ، فقدت من طول ارتمائها فى القيد ، ليس الرغبة فى المغادرة وحسب ، بــل حتى الرغبة فى النباح . وبدت الرغبة فى الانفصال اكثــر منطقية من هذا التجاور اللا مجدى ، من التعلق من مؤخرتك ضمن مجوعة عناقيد من الكلاب .

انتبهت الى دائرة القمر المهتزة البيضاء وهى تصوت فى المجرى بدلا من الّعتمة . عبثت يدى بصلابة الحافة الداكنة فانفصلت كتلة رطبة من الطمى ، حملتها وبـــدأت أكورها كرة صغيرة ثم صوبتها وأطلقتها الى دائرة القمر المهتـــزة . لم تصبه . أخذ يتأرجح بهدوء انقطع حتى أطلقت عليـــــه الثانية وبعدها الثالثة فتأرجح بعنف واعتم داخله واتسع ثم سكن وعاد يصوت فى المجرى . تنهدت بحزن : من العبث أن نصل الّى القمر مادمنا لم نصل الى الانســـــان . ولبثت ساكنا اتأمل هزيمة النصـــر الـــذى يرفرف خادعا علينا .

وفى العودة رأيت رجلا وامرأة يسيران معا ، كانت عجوز تتكلم ببله وهو يؤيد كلامها بهزات بطيئــــة من راسه ، ثم ضحكا معا ، يوما ما سيفقد أحدهما الاخـــر . حزنت لاحدهما الذى سيفقد الاخر ، وبدأت أحترق وانا اذكـــرها

والجحيم يعود ليتقد فى السنة الجليد . والـ (   ) هو ؟
غصت هربا منه فى شارع مزدحم واحسست بالجوع . رأيت
محلا لبيع اللحم ورأيت أمامه رجلا يشترى لحما ويشير
للبائع الى ما يريده وامرأة ساكنة منتظرة بجواره . كان
البائع قويا امسك بالسكين وتناول ساق الحيوان المذبوح
المعلق من مؤخرته وقطعها . والرجل واقف وعيناه مفتوحتان
بكل جوعهما . سيلتهم اللحم الليلة ويدخل دورة المياه او
امرأته ، وفى الصباح يقضى اليوم منشغلا بوجبة أخرى .

حين وضع الخادم أمامى طبق الفاصوليا الخضراء
كدت أصاب بقىء . رأيت الفاصوليا أعضاء كائن ملقاة
فى طبق . تعاميت ، لكننى عندما رفعت اللقمة وعليها
أعضاء الكائن لم أستطع دفعها حية فى فمى فأعدتها الى الطبق
وشربت ماء ، وقمت أتجول جائعا .

الـ (   ) أرهقنى . لا أستطيع المواصلة
فى هذه الرؤية . الاصطدام المتكرر بكل ما يحدث وسبق
أن حدث : وقع الحريق . ان لم يكن قد وقع بالفعل
وزحف فهو سيزحف حتما على كل ما يبرز خاليا من الصدأ
ويأسر نا . هذا الـ (   ) قيح طاعون دائم . عالمنا
يبدو رمادا ملوثا بالدم . يهطل من الشمس ويسيل من
جراح الارض ثم يأخذ شكل الـ (   ) هل قلت الانسان ؟
لا . انه يأخذ شكل الاحتراق ، وحركة الضوء الموجود
المتسلق الصاعد لفترة تكتشف بعدها خدعة الـ (   )
لنا . لعيوننا . لايدينا . لاحضاننا . لتساؤلنا المرفوف
دوما ، المنهك من التحليق ، الخائف أن يحط على الـ (   )
ويجتاحنا بصقيعه الجهنمى على حين غفلة فنقع فى الـ
(   ) يا للاسر الذى يوقظنا . هل نصحو ، لا . اننا نفتح

عيوننا فنرى الـــ (   ) ليس سواه مطلقا . وذاننا ممنوحة
وباب الصخر الوهمى الداكن يرتفع من ورائنا ، ونلتفت .نلتفت
وحسب لنرى فنفاجأ بالـــ (   ) أبدا لا داعى للنكران ،
فليس ثمة جدوى . فالـــ (   ) لم يعد يتوقف على اعترافنا
أو نكراننا والاجدى ، لا .. ليس الاجدى . لكن ما يمكننا
ان نفعله ازاءه . ليس أن ننكر ، ولكن ندع أنفسنا بلا
مقاومة كاذبة . لا يجوز الا تشغلنا أية حركة لا جدوى منها .
ازاء الـــ (   ) وحسب ، نحاول السكوت ، ونرى . يجب
ان نرى . نحترق بالرؤية ويشتعل الـــ (   ) فى عيوننا .
بل فى داخلنا . السكون للـــ (   ) البوذيون يصنعون
ذلك . رأيتهم يظلون بالنار فى أماكنهم بلا حركة . حتى يتسلق
الـــ (   ) كيانهم . والسواد خلف الجحيم . من عند
السيقان الى البطن الى الصدر الى الوجه الى الراس
الى الـــ (   ) . انفجرت الجمجمة . ذلك اجدى ؟ ابدا .
ربما أقل خسارة ؟ لا . ربما اكثر رجولة ؟ شجاعة ؟ أن
ننفجر ونحن نرى الـــ (   ) يا له من معاند ، كبرياؤنا .
أقل الاشياء زيفا . سوف يندفع نحو الـــ (   ) وتنفجر
الجمجمة . المهم الا نسقط بظهورنا . أن نسقط والهوة
أمامنا . الغرور الذى يقودنا الى مذبحة أن نواجه . فربما
لو كان فى هذا العالم الذى شبع موتا ، شاطىء ما ، يختفى
الان أمام العيون المفتوحة التى لا ترى لانها مسدودة
الخلف ، لو ثمة شاطىء ، فيمكننا أن نبدأ بالتفكير فيه من
الان . قبل أن يأتى الـــ (   ) ونسقط . نستمر فى
السقوط . أن نبدأ بالتوقف . بمحاولة ازاحة الابواب الوهمية
الداكنة خلفنا تحت ظل فترة تأمل . وربما نضطر للرجوع
الى الوراء ، متراجعين عن العمى ، متخلين عن العيون
التى لا ترى والايدى التى لا تملك .. للوراء ، أقصى الوراء ،
عبر تدفق الظلمة ، وشلالات الزمن المشتعل ، لو تحملنا

ربما نعود : نعثر على النصاعة الشاسعة (نائمة فى
التذكر . وأضواء القمر الشاب على عذرية الرمال المترامية
البيضاء . حيث يمكننا ان نرى . نطلع على البداية .نعرف
ان كان ارنبا بريا ذلك الذى يعدو فى الضوء أم التواءات
أفعى ، دون أن نفتح عيوننا لنرى . وعبر كل المسافات
الهائلة نبكى لكآبة عبور طائر مهاجر فى صمت . وأجنحته
تحمل عبء المسافات الغريبة فى القلب الذى ناء بوجوده
عالمه . ربما لو استطعنا العودة أمكننا ان نرى من أين يبدأ
الـ (   ) بجحيمه وكيف يزحف فجأة بتؤدة مرعبة نحونا
حتى الصعود واجتثاث رؤوسنا . لو أمكننا ان نحاصره!
وتلاشت المسافات الهائلة ، ورأيت الباب الهائل ينفتح
أمام سنابك الجياد المغطاة وآذانها مدلاة . ستة جياد
تجر عربة مذهبة رسم حولها بالخشب المموه بماء الذهب
ملائكة ! وفى جوف العربة تابوت فى جوفه ملابس كاملة فى
جوفها جثة من كان صاحبها . وبرقت اللحظة فى راسى
بملايين الجياد تتجه الى (   ) تجر جثثا وتدخل بها بوابات
هائلة ثم تخرج نافضة آذانها بدونها ، عبر جدران البحار
والانهار والغابات والجبال : جياد تشد القتلى ، أو وحوش
بثمانى قوائم ، أو قتل جماعى يتم بلا دفن ، قد تستطيع
الشك فى أن هناك فى هذا العالم انسانا واحدا يملك سعادته
فى هذه اللحظة ، لكننا لا نستطيع الشك فى أنه لابد فى
هذه اللحظة . رجل يقفز صاعدا للعالم الازرق ويراهم ،
ويحاول أن يفلت فيفلت من عينيه ويمسك به الـ (   )
وتنتشر الامواج حوله صاخبة بينما يسحبه القاع . وامرأة
تحترق أو تقتل تحت عيون أطفالها ، وهم يحدقون فيها
بصمت . وأبناء ينتظرون آباءهم فاذا بهم ينتظرون الـ
(   ) . عثر عليهم قتلى تحت العجلات ، أو منطرحين
بالضربة أمام مقدمة سيارة أو قابلهم الـ (   ) فسقطوا

وحدهم عندما كانوا عائدين الى أطفالهم فى غبطة . وآباء خرجوا بعد ما وقف الضرب المجنون يبحثون عن أطفالهم وزوجاتهم فلم يجدوهم ويحاولون ان يطيلوا مدة البحث هربا من العودة للعثور على الـ ( ) وتنطلق غربان الاصوات تحوم على مدن بكاملها تنفتح الارض تحتها لتلتئم مرة اخرى وكل سكانها مختبئون بالداخل . وغرقى يدوم بهم موتى فوق وجه الطوفان ، وعبر كل جدار لو رفعته سترى الـ ( ) حدق جيدا فيما تراه فقد يكون جثتك . اتحدى العالم لو حدث ورفعنا جدران الاحتماء المزيف وابوابنا الوهمية أن يملك احد الجراة على الاحتفال باى حدث . ارتداء الوان الفرح الكاذبة والتباهى بها . بل اتحدى لو جرؤ احد ووجد الرغبة أو حتى القدرة دون رغبة على أن يفتح فمه بفتحة مستطيلة سافلة على جانبى وجهه . اقصد يجرؤ على ان يستطيع الـ ( ) ما كان هناك فى الماضى ، ما كانوا يطلقون عليه الـ ( ) آه . الابتسام ( ) الكلمة القديمة فى الاسلوب القديم ! من قال هذه العبارة : « أسلوب قديم . كلمة قديمة » ؟ آه تذكرته : صاحب الابتسامة المفقودة (*) يوما ما كان مثلنا قبل صحونا على الـ ( ) كنا نملك الابتسامة . لم تكن سافلة كما تبدو الحركة التى تشبهها الان . كانت رائعة وكنا نملكها ( ) لكنا فقدناها . انزلقت من الكلمة . أصبحت الكلمة بعد ذلك بيضة خاوية . بناء يرى من الخارج . لكنه فى الداخل فقد كل ما كان البناء له . تكفى لمسة واحدة لتتهاوى الكلمات بعد ذلك فى الـ ( ) تعرت الكرة البيضاوية وفقدنا وجودنا المحفور على الصخر . رأيناها جدارا من الكلس الهش ورأينا أنفسنا نرتجف كالظلال . ونمضى ولا يتبقى منا سوى

(*) ما يراه الراوى فى مساحة الصمت هو الوجه وليس الاسم اما الاسم فهو : صمويل بيكيت .

الـــ (   ) ليس سواه . واذا حدث وتبقى . وظل منتصبا بعدنا هذا العالم . فلن يحتاج الامر الا الى اية حقارة تصطدم به لتهدمه وتطيح ببناء الزيف المشدود بالـــ (   ) يا للخواء الذى كان قائما له شكل القلاع وحوائط اللا شىء .

واخيرا حان الصمت (   ) لا . حان صمت الصمت . بعد حركات الفك المتوالية والتضرع والتســاؤل امام الـــ (   ) واقامة الطقوس الاخيرة . الطقوس التى عريناها فجوبهنا بالـــ (   ) الصفعة السوداء للوجه البشـــرى المخدوع . الوجه الذى كان يشخص ، يتكلم ، يرجو وهـــو يمضى يحمل فى داخله مشكلة غياب الاجابات . فاذا بالـــ (   ) يأتى . يدمر ثم يحرق كل شىء . حتى الغرق الاخير الدائم . هل عانيت أن تغرق فى ذعرك الدائم ؟

طرفت اهدابى . العيون المتراجعة للداخل تحت ثقل الجفون المحترقة والفم الجاف الذى يدهش الان للايام البعيدة وقتما كان يتكلم . ينطلق صوته بسهولة . واللسان الراقد وسط الذهول ، وامامه كل الكلمات كأغنام كثيرة راقدة وهى مينة لا تأتى . تاركة معاناتنا عارية تحت اقدام الخطى التى تلوثنا بالصدأ . الخطى الداكنة التى بعد ما افقدتنا الفزع السريع ، تركت مكانه اغراقنا البطىء الدائم ، لدرجة أن الاحساس فقد الانتباه لها : خطى لا يمكن مواجهتها ، تأتى فى لون الرماد العديم اللون ، والذى يدرك تماما أننـــا فى أسره ، فسواء سرنا بهدوء أم جرينا بالفزع ، أم هوينا فى النوم فنحن عائدون له فى النهاية بل نحن لسنا عائدين ، لاننا لم نغادره حتى نعود . اننا فى القبضة . تحت الحراسة الدائمة للغزو . قوة غريبة فى مظهر ضعفها القاتل الوحشى ، والاكثروحشية من عدو يواجه . بطيئة حتى فى الابتســـامة الساخرة النائمة المقلدة الواثقة من نهايتها التى لا تستحق

حتى ان تصحو ، فهو ابدا لا يخطو . نحن الذين نخطو .
نحن الذين نقوم باللعبة كاملة : نراه فنفر ونعدو ونلهث فى
العدو ونتعثر ونبتعد فنقترب . رغما عنا نحيا نحيا نحيا .
فاذا بنا يا للابتسامة السافلة نموت نموت نموت . بجـوار
السيقان تماما . بجوار الـ ( ) عراه تحت الظـل
الطاغى البارد . والتفت مبهور الانفاس من العدو والذعر
واصغى للـ ( ) ابدا . لا شىء وراء كل هذا . ليس ثمة
خطى . الظل طاغ بارد حقيقى . ونحن حقيقة عارية تحته .
لكن ليس ثمة خطى . وليس ثمة صمت حتى يصر على عدم
الكلام . وليس ثمة من نتحداه ، نتمرد عليه ، بل حتى عندما
استجمع وجودى المخدوع المهان والعنك يا ( ) لا اجدك .
لا ترد على سبابى لك . وأنت لا ترد ، لا تعاقب ، ولا تختفى
وحسب ، بل انك ( ) كم اود لو ( ) بل كم اود لو
اصرخ بكل صوت العالم الاخرس : كن موجودا لاصفعك .
لقد صعدت اكثر الجبال وعورة لاتكلم معك ، فاذا أنت لست
موجودا . لا اقصد ذلك . انك لست موجودا وحسب ، بل
انت ( ) لا . ولا حتى هذا : ( ) . انه اكثر امتلاء منك
هذا غياب . انت حتى لست غائبا . ولست حتى لا شىء .
انت عدم اللا شىء . لا . ولا حتى هذا . كم كنت أود لو
كنت موجودا . ماثلا واعيا لاقول لك : انك أسوأ من أى قاتل
فى كل العصور .

كم كنت ، لو كنت موجودا ، أريد أن أحمل جمجمته .
اذهب تحت نار الشفق واحفر معريا الثقوب التى نسدها ،
بأصابعى العشر كذئب . واحفر وانا اتلفت حولى ، أهدم
الستر الخادع الذى نقيمه وادخل . أتحسس القمـاش
المدد واجره لك . ثم أجرها كذلك . واقول لك : تصـور
الان أنك أنا . غير معقول ! تظن اننى أتمنى ذلـك ؟ لا .

ستدفنى . انا اقول لك نصور ، لكننى لا اتصوره . ليس
لاننى لا يمكن ان اكون انت . ابدا . هذا ليس مستحيلا .
لكن لانك لا تستطيع ان تكون أنا . ثم لاننى لو تصدقنى
ارفض ان اكون انت . كفر يوجد اللعب ثم يحطمها . ربما
تكون اللعب لا تتألم . ينكسر عنقها وتسقط دون أن تصرخ،
وأنت لا تفكر بأنها تتألم أم لا . لكن نحن ، ماذا عنا نحن ؟
كنت اريد بذلك أن اجرهم امام القبر . تحت نار الشــفق
المستعر ، ولا أدع أحدا يرى ، لانهم يقدسونك . ولا يخترقون
حرمة حصارك لمن أتوا الى مملكتك . وامددهم متجاورين .
واقف بينهم ثم اشد الغطاء من فوقهما معا . وفى اللحظــة
نفسها ، مرة واحدة .واتحداك أن تتخذ مكانى . مرة واحدة
ترى فيها كل كفاحك وكفاح أبائك وأجدادك وجنسك كــله
مكوما تحت نار الشفق هكذا فى صمت الجمجمتين . هل
حدث فى حياتك ان حدقت فى جمجمة من ملايين الجماجم التى
تنثرها فى العالم ؟ لا يبدو ذلك ؟ آه يا (   ) كيف أتصور
اننى أتكلم معك كما لو كنت موجودا . كم أود لو كنتموجودا
لاجلدك على فعلتك . انظر اليهما معا . الى ما صــنعت
بهما . كثير ذلك ؟ اذن انظر الى واحدة . هذه أم هــذه ؟
انا لا أعرف . اختر لك جمجمة لترى فيها ما فعلت . انــه
لا يوجد هنا . ولا هى كذلك توجد هنا . أسرع قبلما يحترق
الشفق . قبلما تفقد القدرة على الرؤية . انظر . نعم .
هكذا من الخارج كفر جاهل قاس يحميه ترفه ولا مبالاته .
انظر . ما هاتان الفجوتان ؟ انهما مكان الرؤية . هل تتصور
أن العالم كله كان يتسرب الى من فتحتى هاتين الفجــوتين
اللتين تضيقان شيئا فشيئا حتى تنسدا . تصور أن تستحيل
جماجمنا التى كنا نبتهل بها لك حتى بلا غطاء ؟ ! والفم الذى
دمرته . المكان الذى عرف صوت حبى القديم لك . وأصبحت
أود أن العنك منه ، أسبك . أصرخ فى وجهك ، أعلنهــا ،

موقظا بذلك جليد جحيم العصور كلها فى وجهك . حاملا جثة الماضي التى لا تنتهي : ذنبك الدائم . جثة الكائن الذى اغتلنه ، وما زال وسيظل دوما فى منتصف الظهر اثر ضربتك . لو كنت (   ) آه لو كنت (   ) . انا لا احب ان اكون انت . انا يخجلنى ان اكون انت . انا يبكينى ان اكون انت . انظر (   ) تصور ان تستحيل الى ما وسط الكفن المدد هكذا . ملقى فى قاع مقبرة . فى الظلمة . تصور ان تنسحب من النور . كل النور فى العالم . النور الممكن والنور المستحيل . ثم نهبط بك بعد ما تحمل ضربتك التى ستقضى عليك فى هذا الركن المعتم ، ثم عندما اسحبك انا من الداخل هكذا ، من الظلمة الابدية الى تحت الشفق . ولا نستطيع أن ترى نور العالم المحترق . تشخص بمحجرى عينيك ولا ترى . لانك فقدت عينيك . لانك (   ) آه . لا يمكننى ان اكون انت .

آه . الـ (   ) غرنى . احسب انك فى داخله . نسيت انك حتى لست الـ (   ) لو كنت ! كنت افرغت كل ما احمله من رغبة الان فى جلدك . لم اكن لو (   ) لافعل مثلك واضربك على ظهرك من الخلف . ابدا يا (   ). لا للاسف . (يا) وحسب . منتصبة تجاه صمت الصمت . ليس امامها شيء او لا شيء . كم كنت اود لو اسوطك يا . ليس على ظهرك حتى اقصمه ، لكن على وجهك . اتعرف اين بالضبط ؟ ليس على الخدود المزدهرة على صلّواتنا . لكن اين ؟ بالضبط فوق حاجبيك المقامين ببداية الجبهة المتغطرسة. التغطرس المنتصب فوق عينيك اللتين لا تريانا . كنت ساعميك من الضرب واجعلك تكف عن الرؤية . أن تفقد الرؤية افضل بكثير من أن تفعل هذا وانت ترى ثم لا ترى . لو افقدتك رؤيتك المزيفة ، ربما أمكننى أن أغير مجرى الحدث

فى هذا العالم العابث مثلك . انعرف كيف ؟ بأن اجعلك أنت بعد ان افقدك عينيك اللتين خدعتاك حتى الان تسـأل . نصور أن يتساءل السيد وينتظر اجابة ممن وافق ان يكون العبد ؟ تصور ذلك ولو لمرة واحدة . وليس سؤالا ، بل استجداء صارخا . ربما . آه كم كنت أريد أن اصفى معك فى هذا الجحيم كل شيء . فربما تيقظت . كان بودى فقط أن نصحو على صوت لعنتى لك . وضربة سوطى . وترى رغما عنك هيكلي العظم اللذين يرقدان تحت نيران الشفق ، يواجهانك بطيبة . باتهام صامت يواجهانك . وعلى العظم، من تحت الجلد المنتزع الذى تلاشى ، بصماتك يا قاتلهم المؤلسة .

كان بودى الا اعيدهم . انتهينا . فقدنا خجلنا . كنت سأقول لهم لا يجوز ان نخجل مما يصنعه هو . لكن مما نصنعونه أنتم عندما تستحيلون الى آلهه . لكنكم مازلتم تموتون كل يوم . كل لحظة . كل كل .

انت (   ) آه ، لست موجودا حتى اقول كل شيء . نسيت أننى اخاطب نفسى . تصور أننى اقوم بكل هـذا الذى لا ينتهى وسط كل هذا الخواء ؟ واننى أرانى من الخارج. وانا اتوجه الى ناحية ما ، واظل أتكلم ، احرك ذراعى ثم أتوعد واهدد ثم أكتشف الـ (   ) فأصمت . ثم لا أطيق الصمت وأعرض على الـ (   ) لا . أنت لا تتصور . ولا جثتاى اللتان فقدتا صاحبيهما تتصوران حتى لا تتصور ! اقصد أن اقول . لا . لم أعد اقصد شيئا ما دمت أنت (   ) لا . لماذا زرعوا هذا الوهم فى داخلنا . لماذا قالوا أنك موجود ؟ وانك خالق العالم . وأنك الذى تجعل النساء

تلد ، والارض تزهر ، والسماء تعطى دائما ؟ لماذا قالـوا هذا الوهم لنا ثم ماتوا تاركيننا نحاسبك فلا نجدك ؟

آه يا (   ) لماذا اتكلم الان ؟ ما الجدوى ؟ اذن لماذا اسألك عن سبب السؤال ؟ لماذا لا أصمت ؟ لماذا وأنت غائب لا أصمت ؟ ادخل جلدى واتكور كتوقعة فى أعضـائى . لماذا ؟ لماذا لا تحط الـ (لماذا ؟) هذه الان . لماذا لا تـكف عن الرفيف حتى فوق هذا الجحيم ؟ . احترق الشـفق تماما ؟ . لمن اقول ذلك ؟ هيكلا العظم لن يسمعانى لمن اذن أقول ذلك ؟ السماء . لكنها فقدت حتى الصـمت وأخذت الابعاد تجتاحنا .

يخنقنى الصمت . واظل أنصت : خواء الصمت . وحدى لا اراه . ليس سواى وهو (   ) تحيط بى الـسـنة الجحيم الجليـدية (   ) لملمت اطـرافى وجلست ضممت ركبتى وحملت يدى فى حضنى . وظللت حاملا رأسى . لن يرى . ولا اى احد اللعنة . لكن على من سأصب لعنتى ؟ كنت أود أن أصبها عليك . لكنها لن تخرج ستظل فى الداخل . كنت اود لو (   ) ربما كنت ، بعـد التمرد ، بعـد أن العنك واصفعك بالسياط ، واتخلص من كل ما تحملتـه بسببك ، ربما كنت أحببتك ! اتعرف ؟ على الاقل ، رغم كل الكراهية والعناء ، ورغبة كل منا فى القضاء على الاخر ، اننا كنا سنكون اثنين . أن أصيح يا : وتكون قبالتى . قد تحكم على بالجحيم ، وقد أكفر بك وأحاول أن أحطمك ، مثلما حطمتنى . لكننى فى النهاية ربما كنت سأحبك . آه يا (   ) لو كنت موجودا ! كنت تكلمت معك الان ، ربما كنت قلت لك عن كل ما أحببته فيك من قبل ، ومنعنى عداؤنا عن أن أبوح لك به ، وكل ما كرهته كذلك ، وكنت أحب أن تعرفه

حتى تكف عنه فنكون رائعا كما ، أريدك ، وافضل من كل شيء ، اننى لم اكن لاكون وحدى هكذا . يا (   ) لو كنت موجودا . كنت رايتنى على الاقل ، حتى ولو كأعداء . لكنك (   ) لا . لست . حتى لن أعود وأقول لك أنك لست هناك . لن أتيقظ ثانية ويدك هى التى تشعل الجحيم فى العالم ليسقط فى الـ (   ) أبدا . سيظل مشتعلا وحسب ولست وراءه . وستبرد اللعنات . ستتجمد كدماء جامدة فوق شفتى لانك لا تسمعها . أنت يا (   ) أم هو . أبدا. انقضى الزمن الذى كانت أنت فيه روعة العالم استحالت الى : هو . أصبحت هو لا . ليس حتى هو . ربما : أنا . لا . ولا حتى أنا . بعد ما اختفت « أنت » وتبعتها « هو » ماتت « أنا » كزهرة لم تتفتح وجفت بها الساق .

سقطت شفتيا لسفلى مثقلة بالحسرة ، ومضيت اتجول فى أرجائي الهامدة : يدى قدمى . ساقى . ذراعى . جمجمتى ، ودوائر الصدأ الراقد اثر الحريق ، يأسر الرغبات فتموت كلها فى مكانها .

وحدكم فى صحن هذا السجن . وحدكم تشيخون . وحدكم تتقوسون . وحدكم تنحنون حتى الانكفاءة الاخيرة التى تقترب بعد هذا الانتظار . لست أدرى كيف ستكون . لكننى أعرف أين ستكون . وعلى أية حال ستكونون وحدكم. ليس موجودا لنلعنه على ما حدث وما سيظل يحدث . ليس موجودا لنستغفره لو اثبت وجوده وتكلم واظهر ولو قليلا من الندم بل حتى لو أبدى تأثره لما جرى . لكنه ليس. وحدنا ازاء الـ (   ) يا للجحيم فى صمت هذا السجن، سنموت هكذا . وحدنا . مات فى البداية هو دون أن يشرب

ماء . وسنموت نحن دون أن نبلل لساننا بالكلام مع احد .
حتى الكلمات الاخيرة فقدنا نعمة الارتواء بها . سنموت
بلا كلمات . بلا كلمات يا ( ) . متى ننسى الـــ ( )
وننسى الـــ « يا » بلا حزن ؟ ونستدير للداخل . الانتظار
فى الداخل ( ) . ليس ثمة خارج . غاض الخارج .
ذهب ولم يعد وراءه عالمه . تلاشت النعمة بكاملها . لم
يتبق مكان نتجول فيه . نهرب منه . محاولين الهرب أمام
زحفه . مات « هو » أولا . فسقطت رغبة الرغبات : خلودنا
المكن الوحيد . تكومت محترقة بالقاع . ثم اختفى هـــو
وعالمه . آه لو . لا . أقصد ( ) لا . لم أعد أقصـــد
شيئا . اود لو اتعود فقط على الصمت هنا ( ) فى هذا
الداخل ( ) هذا المريع ( ) وسط آلاف الالســـــنة
الخرساء الزاحفة منافواه الافاعى الجحيمية ( ) مستحيل
( ) أمامنا وخلفنا يسقط ( ) يا هـــوى السقوط :
( ) حدث الانزلاق الخطر وها نحن نتدحرج للنهـــاية
السحيقة ( ) تدور وترتفع ( ) يا للالســـنة التى
ترتفع فوق ظلمة الحوائط المنقدة المستديرة حولى ، تتلوى ،
زاحفة نحوى ( ) يا . ( ) . لا . لو نتعـــود
على الصمت هنا ( ) لا . أبدا . فى الجحيم : لا كلمات ،
ولا صمت . يا ( ) الجحيم ! ( ) الجد ( )
الجـــ ( ) الـــ ( ) ( ) ( ) ! ( ) ؟
( ) ؟؟ ( ) ( ) ( )

(نوفمبر ١٩٦٦)

شلالات الكهف الداعشر

الى « م » :

« اذكر عن نفسى

أننى لقيت المجـد فى حبك

وها انا ضائع فى لا نهائية الليالى

يا يأســا يزداد بلا انقطــاع

ولم تعــد الحيــاة عنــدى ،

وهى حبيســـة فى عمق لهاتى ،

غير صخرة من الصرخــات » .

• انجــارتى •

ماذا سبى منا حتى نجناحه بتدميرك يا التى العشور المترانى فى الوهم . يا خلو الانى المتراجع . والجياد الجامحة تجاحنى فى الرياح المبتلة بشوارع المدينة ، والسماء . شناتى الدائم . ولا أمل فى بزوغ حنايا جدار ووجهها المعتم فى لون معدن فقد لمعانه واجتاحه الصدأ ، نفس اللون لكن بلا لمعان . محكمة الدوران حول الارض ، غطاء للغرباء لا يمنحهم سوى العرى أكثر . والتجول حتى الانزلاق مع الشوارع نحو البحر ، فكل شوارع المدينة منزلقة دائما نحو البحر ، ومهما هربت فى جوف المدينة غائصا فى عمق مواصلتك للهروب ، تجد نفسك فجاة فى شارع يدلى بك حتما نحو البحر .

ادرت رأسى مستجديا حب المدينة فلم أجد . وقت جموح الجياد الباردة لا تكون هناك مدينة . كانت الشوارع بالفعل تحت صوت سنابك الجياد ، لكنها لم تكن شوارع المدينة . جعلت احاول دائما السير الى جوار الحوائط برغبتى فى الاحتماء . لكنى ما وجدت أبدا حائطا أحتمى به ، وأسير بجوار البيوت متعمدا أن أحتك بقمة كتفى ، وطول ذراعى ، وباطن يدى بحوائط البيوت ، لكنها تبتعد دوما متعالية لتتكوم موصدة باحكام على من بها ، والعرى البارد يظل دائما بينى وبين الحوائط .

وتأخذ فى لطمى الريح بعنف فأسرع راكضا . اعبر التقاطعات بسرعة وأتوقف فجأة فى أول كل شارع . أنظر الى نهايته الغامضة وارى خطا صلبا قاسيا لا ينحرف نحو اية كومة من الاكوام الحارة المضيئة بالداخل ، والمتزاحمة

علي ناحيبيه . بل يسرع بى باردا نحو البحر . وارغب فى النكوص لكن الى اين ! واخجل من الوقوف فاسرع كما لو كان كذن ما لابد سى انتظارى . واظل اغذ السير حتى انتهى الى انهاك . ووجه ما لا يغادرنى أبدا . والشوارع العارية من اى قدم نهبط بى نحوه ، واظل اخب فى الرمال اللينة . حتى الرمال الصلبة ، حتى الوجه البارد الدائم . لا مفر . هكذا . ودائما ، نخوض فى عدم البداية . عتمة الذى لا يبدأ ولا ينتهى . المحدود المسطح فى الخارج والمستحيل فى الداخل . قرب القطاعة المسعورة : عتمتك . وبروز الصرخات التى نشهق وتقفز طافية ثم نسقط مخنقة فى قبضة الصمت . ونعدو وليس ثمة منفذ . ما نملكه حتى الان لا يعدو جسد الرغبة . ومع ذلك لا نكف عن التجوال والبحث فى العتمة . ونتذكر ما يحكى عن ضوء العالم . أبدا . ليس ثمة ضوء يجسر على اختراق عتمتك . لا مفر من ان نكافح للضوء وسط عتمتك . هكذا . بلا بداية . ودون ان يتشاهد لك احد . بل حتى دون أن يشاهدك احد .

والنبع هادئا وجه البحر . ككل يوم . ضائعا ازاءه دوما . والضباب هو الوحيد الذى يرى . متشابها معلقا فوق الدكنة المتلاشية فى داخلها . ورغبتى لاتتعدى برودة البشرة ابدا . طائر يحوم لامد طويل ، يصنع الدوائر التى تبدأ عالية واسعة ثم تهبط وتضيق لتصبح أكثر ضيقا وانخفاضا واكثر قربا وسرعة ، ثم يدوم دفعة واحدة على الق غرح . وما نلبث مخالبه أن تبتل بالموجة حتى تتلاشى . ولا يستطيع الطائر ان ينفذ الى أكثر من حدود رؤيته .

فوق الطوار الحجرى عاد الخطو يزحف رغم عبث الزحف . والرغبة مقطوعة الرأس ومع ذلك تحس بالاجساد الحارة المتوجة بأزهار الشعر ملفوفة باحكام فى المعاطف

الجلدية الواقية من المطر . والجوارب الصوفية الملونة ، والاحذية ذات الكعب المدرب على العزف . والقفازات والوجه : النافذة التى ما كان ينبغى ان توصد ابدا ، اكثر انغلاقا من كل نوافذ الجسد . مشدودة القيد فى صحن الالوان . والبسمة المتداولة المطفأة مقسمة بالتساوى على جانبى الفم . والعيون تبدو ولمعانها طلاء . ساكنة فى الوجه كعيون لعب الاطفال ، ليس مهمتها أن نرى بقدر ما ان نحتل مكانها فقط لكى يكتمل الوجه . ودائما ، كانت الوجوه نمضى فوق الطوار كاملة كوجوه الموتى .

واواصل الزحف لاننى أخشى التوقف . كانت فى داخلى حية ، ما أن تحس بى واقفا حتى تمد أطرافها الاخطبوطية وتنطلق فى فراغ الغرفة فوقى . وقبل ان افعل ما تجبرنى عليه كل يوم ، قفزت بها الى الطوار ، لم اجد الطوار مختلفا عن الغرفة . الطوار فقط اكثر ضوءا ، وذلك ما يخيف الرغبة . يجعلها تتجمع خشية الضوء الحاد . ولذلك اقضى بها كل اليوم فى الخارج . وعندما تنطفىء المصابيح فى الطرقات لم يكن ثمة مفر من العودة .

لكن ما حدث كان جديدا ، عندما كنت ازحف محاولا الابتعاد عن البحر انتبهت بغتة على اصطدام معطف جلدى بى . وامتعاضه من وقوفى فى طريقه وسط الطوار . لابد انه انفعل ، لانه ظل مديرا الى راسه ، ودائرتا السواد فى عينيه تبرقان بسرعة مع حركات يديه واهتزازات زهور الشعر ووجهه يحمر ، احسست بفرح غامض ، وانا ارى وجهه يحمر بغضب فى وجهى . كان وجهه قبل ذلك كالح البياض لكنه لما اخذ يحمر صرت اتامل ذقنه بحركته السريعة وخديه يغمرهما فيضان الدماء المفاجىء . وعندما

توقف كل ذلك وهبطت يداه بالقفاز غانصين فى جيبين على جانبيه عاد وجهه كالحا مرة أخرى واستدار به ومضى تنبعث وقع كعب الحذاء العالى الحاد الرنين يرجع لى ويحلو . ابتسمت للرنين واستدرجته حتى جاء . عدت به للغرفة وخلعت من عليه كل لفافاته المعطف الجلدى والقفاز والجورب الصوفى ، والحذاء وقناع الالوان وطلاء عينيه ومسحت بكلتى يدى على شعره الذى انسدل طويلا على الجسد العارى تماما . والدفء المحمر فى بشرة الجسد كله . فى الوجه والعنق والصدر المتسع الرحب، ونبعا الدفء ينارجحان فوقه ، ثم البطن النائم ، والفخذان برزا تجاه فوق الامواج كجانبى زورق . ابتسمت لها فابتسمت لى . وعندما قفزت فوق القارب تأرجح منتشيا ولم يطوح بى للبحر ، فأخذت أبحر .

لم تكن عارية تلك التى تنام فى الذاكرة . كانت تبدو فى قميص شفاف ، والوشى حول الصدر كرغوة الامواج التى ولدتها . كانت مطرقة وخيطا القميص غائصان فى الكتفين المشتعلتين . ولا يمكن التمييز بين الخيوط الحريرية الشفافة والكتف ، ولا الثديين وشفافية القميص . والظلال ترقد فى الفجوات العطشى . تاركة ما يبرز يلمع بنداء ساطع لا يصمت فى نقطتين صغيرتين جدا لا تكفان عن الحركة فى العينين المطرقتين بشرود . ونقطة تحس بها تشمك فوق أرنبة أنفها ، وبقعتين داميتين ترتجفان فى الشفاه ، وضوء يصعد فوق العنق الطويل ، ثم الضوء المتدفق الطاغى الذى يبرز فى العتمة المستكنة خلف استدارة الثديين . استلقيت متمطيا بجوارها فظلت مطرقة كما هى ، متظاهرة بأنها لا ترانى . كانت الشيطانة بجانبى فى الفراش ،يسعى لخم كل منا لامثا نحو الآخر ، ورغم ذلك تتصنع الشرود .

اخذنها فى صدرى فاشتعلت بارتجاف رغبة الشفاه وتموجت تحت صدرى وحول عنقى ، وذقنى وصدغى . والرغبة ستعر فى حركة النقطتين المضيئتين فى عينيها . وغاصت اصابعى فى شعرها واخذت راسها بجانب عنقى ، فتأوهت واغمضت عينيها وانزلقت بقوة بى فوق البحر .

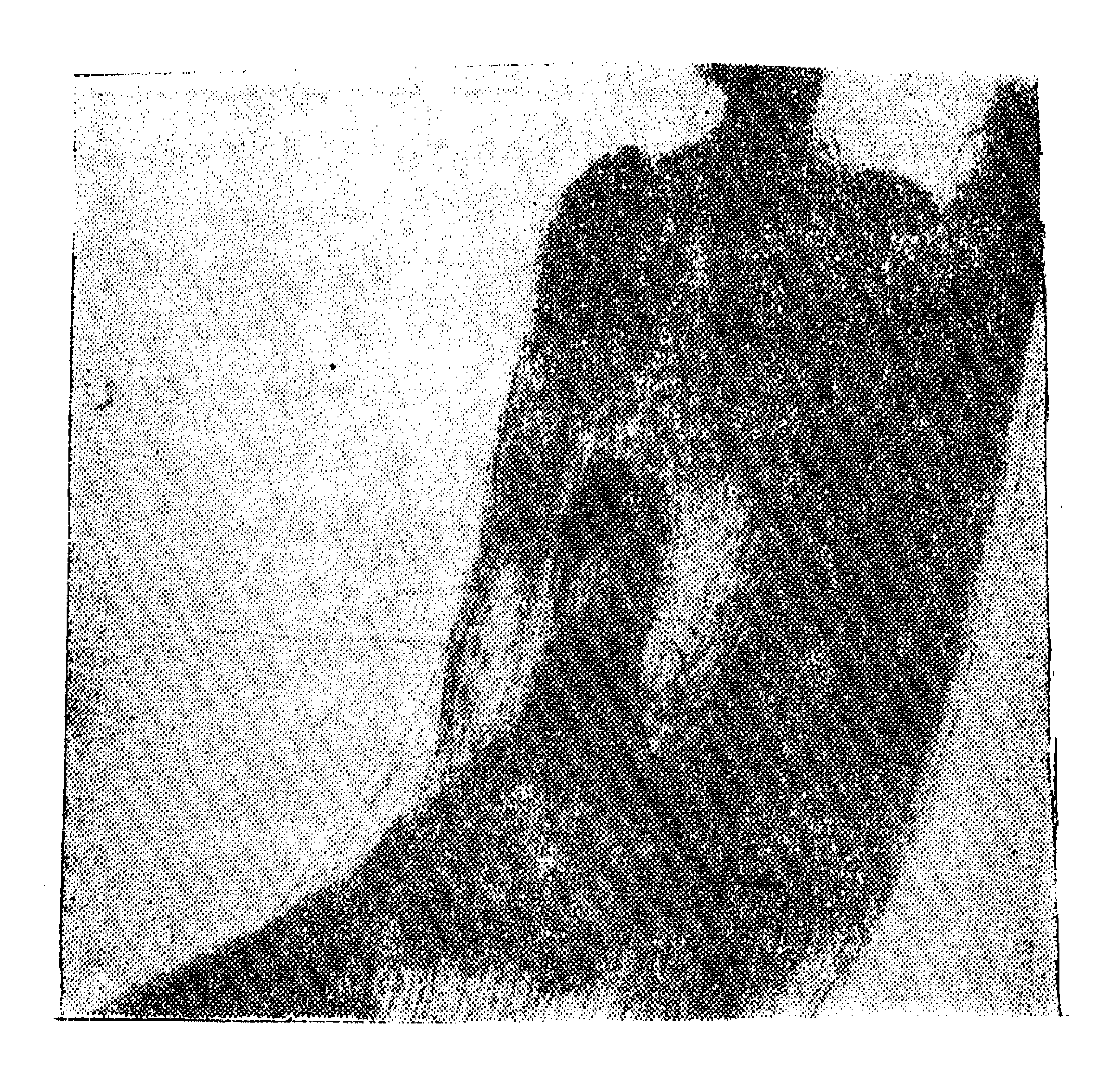
واستحالت الغرفة حولى متخمة بجسد الرغبة .منتفخة وباردة الجلد حتى أنها كانت تلسعنى . وكنت متلاشيا فى ركن الفراش الملوث تحتها ، والجليد يلوث راس الرغبة المقطوع . واحدق مقطوع النفس فيما يصفعنى هكذا فى الفراش ، وأرزح تحته . ورغبة الحط على شاطىء تطير لتسقط فجأة على جبل جليدى يدمر تحتى قاع القارب ويبرز من تحت حطامه . وأبتلع ريقى البارد وانا أحيا فى أسف وسط كل حطام القوارب التى لا تظل تحتى .

قمت وغادرت الغرفة وحملت اقدامى على السير . كان حلقى شديد البرودة والجفاف وايضا الرؤى . وخطواتى تسقط فى التقليد المهترىء ووقع الخطوات المعادة يذكرنى بوقع الخطى الجنائزية . ولم احس بالرعب وانا اتدحرج تاركا خلفى لا شىء . و « أناى » تتبعنى ككلب غريب يصرخ او يصمت فى الطرقات دون صاحب . ويأتى الليل و «أناى» مازالت دون صاحب . وتهمد الطرقات وتتركنى فتعتم جثث البيوت اكثر . وتجتاحنى الريح فاعوى . وفى زمجرة الريح يختنق العواء ثم يموت . وأحس بأناى ترتجف فاهرع صوب فتحات البيوت المعتمة واقف ازاءها رافعا راسى محدقا فى الخط الحاد المعتم بين ضلفتى الباب ، والذى لا يتسع مضيئا ابدا ليسمح لى بالدخول ، ثم اخفض راسى نحو الارض واواصل السير بعيدا عن الحوائط المسكومة

على داخلها . وتظل مندفعة تحتى : خطى عرجاء فقدت القدرة على السير بعد ان فقدت الرغبة .

واكتظ داخلى بالغثيان وانا ارى سقوط الليل يحاصر العمر ببطء ، والظلمة تضرب فى وجه العالم . والطرقات تمتد أمام عرجى مستقيمة بلا معنى . مليئة بعلامات المرور الباهتة ، والاشارات المطفأة من اعوام بعيدة . وروث الكائنات الجاف . ورماد الاحتراق ورائحة السير القذرة التى تنبعث من جوف النعال السائرة . وكثيرا ما اصادف تحت قدمى فجأة دما متخثرا لما يجف بجوار بقايا ساق انسانية مهشمة . أو فقرات عنق ملتصقة بأرض الطريق .

والطريق بعيدا عن كل ما يحدث . راقد وممتد حتى انقطاعه فجأة عند البحر ، ليس ثمة بادرة خضوع . وليس سوى التضخم المهين ازاء الاقدام التى تلاشيها أرض الطريق الصخرية .. وسوف يجىء يوم تتلاشى فيه القدم تماما ، واسقط فاذا بقدمى ملتويتين وصغيرتين الى حد الغرابة . والتفت للزرقة الصدئة البادية : اكثر انانية من الطريق واكثر قسوة من الابواب الموصدة . ولم يكن ثمة سبيل الى التوقف بعد أن غدا مجرد السير مهينا . أن نكتشف العبث ونصر على تأديته شىء مخز ، أكثر خزيا من الذى يملك الجرأة على التوقف ، التداعى ، السقوط ، ملامسة الارض ، بسط راحتيه وساقيه والسكون . الكف عن الادعاء . ذلك أجدى من الاستغراق فى الوهم ، والركض فى السير اللا مجدى . مواصلة السير قد تكون ستارا فى وجه الخارج ، تنحية للشماتة أو الاتهام ، انتصابا لرسم النصر أمام وجه الاخر ، لكنه انتصاب خاو ، وخزى الداخل أكثر طغيانا ووجودا من كل ما عداه ، قد ينتفى الخارج بانتفاء اهتمامنا له ، لكن



الداخل ما يبقى دائما . حتى فى الليل . سجننا الـذى ننام ونستيقظ فيه . ولا مفر منه ، غطاؤنا الذى لو تعرينا منـه ما وجدنا غطاء آخر سواه . ابتسمت لداخلى . رايت البسمة فى وجهه شاحبة كما لو اننى انتزعها من فوق حبل مشنقة . ونفضت قدمى من الخطى وعدت له . هالنى أن العـودة لم تكن تبعث على التفاؤل أبدا . كانت عودة لمواجهـة الاشلاء المنتظرة . رأيت الرياح الماضية وهى تبدأ فى التحرك من بعيد . ثم رأيتها وهى تهب بقافلة الجياد المظلمة والصفير والجموح . ثم اشتدت تجتاحنى . ليس فى الشوارع هـذه المرة . لكن فوق أرضى العارية .

وعانيت البرودة التى اخذت تصحو فى الداخل . . تغمر أطرافى كلها وما حولى بل حتى الزمن الذى سقطت فيه . واحساس لم يكن غريبا ، لكنه لم يكن مفضـوحا هكذا . يطفو من صميمى كفقاعة باردة من صميم بصـقة طوح بها مجنون فوق أرض صخرية ملساء . حتى تنفذ فى البرودة الابدية التى تأسرها وتظل معها حتى تلاشيها .

وجاهدت فى أن اذكر أياما لم أكن فيها بصـقة . لم اذكر شيئا . فقط رأيت المـاضى كله عاريا ممتدا امـام تذكرى له ؛ صخر معتم املس . وتتكوم حاملة نفسـها فوقه ؛ بصقتى . أدركت أننى أتذكر . لست فاقدا للذاكرة كما توهمت . بل اننى أتذكر اللا شيء جيدا الخواء المهين المنتصب فوق سطح البصقة كخيمة أسر . وجاهدت لكى افتقد هذه اللعنة .

انحنت الستيرة البيضاء أمامى . حدقت فى الـراس الذي تحمله وسألت :

ــ شيئا ينسى البصقة كونها .
قطب جبينه وعاد يصنع انحناءه ثانيه .
ــ الا تفهم ؟

ظل يفتح فمه ويغلقه عدة مرات حتى نفصد العــرق من نحت الشـعر . أدرت المقعد عنه وشرعت فى القيام . لكنى رأيت أكثر من سترة بيضاء تجوس خلال المناضد وتاتى نحوى وجباههم كلها مقطبة ، قلت لهم فلم يفهموا . تعالت اصواتهم حولى فأحسست بالارتباك حدقت بسخط فى نظراتهم السوداء التى تتأرجح فوق بياض السترات ثم سقطت فى المقعد يائسا .

سمعت عزف كعب حذاء عال الى جوارى ثم احسست براحة يد خفيفة تحتضن كتفى وكفها الاخرى تشـــير لهم بالابتعاد . فأحنوا رؤوسهم ومضوا . راعنى ما حـــدث فرفعت وجهى الى الجذع اللامع حتى الاثداء الرحبة المتوهجة والعنق الطويل والوجه العالى جدا وشفتاها تنبسان بالشراب كان رائعـــا احتضان كفها لكتفى ووقوفها الى جوارى هكذا وانصراف السترات البيضاء . تناولت يدها فى راحتى فانحنى وجهها على وجهى . نظرت فى عينيهـــا فابتسمت وربتت على كتفى وجلســـت الى جوارى وهى لا تكف عن اللهاث والنظر لى .

ضغطت على يدها بكلتى راحتى فوق رخام المنضدة . كان باردا له شكل عاصفة تتموج ، ويدها الصغيرة تحت يدى اللتان لم تكفا عن التشبث بها .

ــ كان فطبعا الا يفهمون رغبتى .
ــ المصيبة أنهم دائما لا يفهمون .

ــ وكيف جئت اذا ؟
ــ لا ادرى .
ــ لكنك جئت وانت تلهثين .

ــ اننا لا نلهث دائما لاننا نعرف ما نلهث وراءه . نادرا ما يحدث ان نجرى وراء شيء نراه امامنا .

ــ لكننى جئت وانت رغبنى .

ــ كان على أن أغادر المدينة بالامس . وكنت ستجيء دون أن تجدنى .

ــ ما الذي حدث .
ــ رأيت البحر .
ــ لكن البحر يوجد دائما .
ــ لم أر البحر الا بالامس .
ــ ولماذا بقيت ؟.
ــ لاننى رأيتنى أصرخ بالامس فوق الساحل .
ــ ولماذا لم تكفى عن الصراخ ؟.
ــ بودى لو أكف . لكنه لا يكف هو .
ــ من ؟

رأيت شفتاها تزرق وترتجف بشدة فأدرت رأسى نحو النافذة . كانت دائرة الشمس تنزلق فى البحر ، والامواج المعتمة تتوحش وتبدأ ركضها الليلى المريع .

ــ لقـــد أتى .
ــ نعم . لقد أتى .
وسـاد الصـــمت .

ـ انت خائف ؟ .
ـ يدك ترتجف بعنف .
ـ ووجهك شاحب جدا .
ـ وانت تحاولى الا تصرخى .
وعاد الصمت .
ـ لا تخف .
ـ وكيف وانا أستمعه ؟
ـ بأن نحاول أن نسمع صوتا آخر .
ـ طوال عمرى وانا لم اسمع صوتا غيره .
وتوحش فى صمتنا صوته .
ـ ربما يصمت ؟ .
ـ لكنه لم يصمت أبدا .
ـ لكنه ربما يصمت .
ـ متى ؟ !

واستحالت شراعا منتشرا لصق كتفى . غمض حلقى وانا اتطلع اليها فضغطت يدها يدى بقوة وشدتنى واستدارت بى فتوارى البحر خلف ظهرينا . وتعالى الايقاع الىجوارى . لم يكن يجىء ويولى بعيدا هذه المرة . كان قريبا مستمرا موازيا لوقع قدمى . وكان غريبا أن يحدث ذلك التوافق الذى لم اكن لانوقعه وان لم يغادر أحلامى النائبة . واحيانا كان يتلاشى صوت خطاى تماما . كانت الرغبة فى سماع وقع قدميها صافيا تحتلنى : أن أصغى وهو يأتى . طوال عمرى وانا احلم بالخطوات التى ستأتى . لكننى لم اتصور انها ستأتى بغتة هكذا بالصوت الذى يتصاعد واراه يوجد سامقا وسط الخواء . مزيلا بخطاه ريح البحر . ومشبرا فى رغبتى الدفء حتى اننى بدات احس بها تتحرك بنشوة على شوارع المدينة . والشوارع سكرى . والسكر شربته

البيوت ففقدت المدينه صـــحوها القيصرى . والابواب السكرى جعلت نفسح على الشوارع . نقترب يارقص الخطى النابية . يا جمره فحم الغابات البعيدة . يا الق الماسات أسلك على شعاعها المسالك المحرمة . وادب فى الدغـل الاخضر . أعانق صدور الرغبات الحية . وأجوس خـلال جذوع الزمن الراقد خافك . أترنح على غمك الصـامت . وأتلمس بكلتى يدى باب الكهف الاتى : على بـاب كهفى يا ليل سأسهر .فأغسل زجاج مصابيحك المطفأة وعلقها الليلة !

ودت رغبتى كما لو كانت ستولد الليلة ولها راس . وتذكرت الرياح ووجه البحر . فاجتاحتنى الرغبـة فى رؤية وجه رغبتى . ثم سكنت تماما ساقطا فى حزن ثقيـل لما رأيت كل هذا الفرح المجنون الاعمى الذى يجعل رغبتى تتعثر ثانية دلهفتها العثـور على ما نتوقع انـه سيكون راسها .

والتفت اليها وتمتمت بشفاهى التى أدركت أنها لابد ستكون شاحبة لانها كانت ترتجف .

ــ أخشى أن تكونى قد تعبت ؟

طرفت عيناها فتوقف البريق ثم عاد يسطع مـرة اخـرى . ابتسمت لهـا فاشـتد سطوع البريق لى وهى تهز رأسها :

هل تعبت ؟

ــ ابـدا .

ــ لـكن الطريق طويل .

ابتسمت وهى تتلقف أصابعى وتسطع فى عينى :

— أنت تقطعه كل يوم .

— انه طريقى .

— ولو .

— يبدو أن الانسان ينسى كل شيء عن طريقه بعد ما يسقط فيه . اتعرفين ؟ . يخيل لى أننا لا نسير أبدا . نحن نسقط أقدامنا فى الطريق ، وبعد ذلك يتولى هو كل شيء . تماما كالذى يسقط يديه فى قبضتى شرطى اقتاده الى السجن .

كانت تتأملنى وانا أتكلم . والابتسامة تفيض تحت وقع الكلمات. بعد أن صمت كل وجهها يبدو كما لو لم يعرف طوال عمره بسمة واحدة . بدا قاتما لدرجة الفزع . ولما حدقت فى عينيها ولم يسطع شيء . شددت أصابعى على أصابعها وحاولت ان ابتسم لها . شددت هى الاخرى على اصابعى وظلت تحتويها فى صمت . رجوتها .

— لا داعى لان نظل فى الحزن .

— للاسف ، أننا لا نستطيع الفرار .

— ذلك كان قبل أن يجد كل منا الاخر .

— اذا فأنت فرح بى ؟

ونبتت البسمة ونورت فى وجهها ثانية وهى تعتصر أصابعى بفرح ظل يسطع شاسعا أمامنا حتى دخلنا الغرفة . وأغلقت بيدها الباب علينا فلم أعد أراها .

وعندما تنفسنها فى العتمة احسست بالغرفة حولى وهى تستحيل الى امراة . كانت رائحتها قوية . ولم تكن رائحة زهور من نوع واحد . بل رائحة حقل تتنفس فيه أعدادا هائلة من الزهور المختلفة . تتمطى متراخية على الاشياء الساكنة تجعلها تفقد جمودها وتبدأ فى التقلب والحركة والتنفس لتحيطنى بها . ورأيت الاثاث لاول مرة يلمع فى العتمة . لمعانا قاسيا كما لو كان ينطلق من عينين تعانيان الرغبة التى تتقافز أمام رغبة الرغبة وهى تقترب ، ويقترب نوالها . واحاطت ظهرى بذراعهما وهى تسائلنى :

ـــ أانت تحيا دائما وحدك ؟

تذكرت كل ماضى وقلت لها : نعم .

ـــ منذ زمن طويل ؟

عدت اتذكر ولما لم أجد شيئا مخالفا اجبتها :
نعم منذ ولدت .

صعدت ذراعها الى كتفى وراحة يدها تنفرد بكل اتساعها لتضمنى اليها ثم قبلت جانب جبهتى .

أحسست باستدارتى شفتيها وهما تلسعان جبهتى فأحسست بساقها تلتصق لدرجة اللسع بساقى ، والدفء ينتشر غزيرا من خلال ساقها وحضنها الى أرجاء جسدى، وعندما أدارت رأسى لها وقبلتنى فى فمى أحسست بالرغبة تقفز وتنتصب وتبدأ فى الهواء . ولما أعادت قبلتها لفمى لفترة أطول احتويت رأسها بين ذراعى وهمست لها بخجل :

— اننى اريدك .

ضحكت .

وخفت العتمه ولم يعد ستارا يمنع الرؤيه . كانت تتعرى . وكنت ارقبها وأنا ارتجف رغى منحنية تخلع حذاءها . ثم تعرى ركبتيها وتبدأ تفرد ذراعيها نازعة فردتى الجورب القائم الطويل . ورايت ساقتها بكاملها وهى تنطلق حره فى العتمة الخفيفة . وكجمرة تشتعل كانت حية راعية ولبست خجلة أبدا . بل بدت كما لو انها رمقتنى واستمتعت لحظة أن تعرت .

وجعلت قطع الملابس تتساقط على الفـــرانس ببطء وتنكور فارغة ضئيلة فوق ذاتها تاركة عربا طاغيا يتمطى وينتصب فوق الفراش . ويدير راسه نحوى ثم سكن لدى مد راسمعها من فوقه تدعونى .

تنبهت فجأة الى ملابسى التى صارت بلا معنى كملابس المهرجين . ابتعدت فى الركن جاعلا بينى وبينها مقعـــدا عاليا . ثم أدرت ظهرى وجعلت أخلع كل اللفائف التى أكبح بداخلها عريى . واحس بكل قطعة من الثياب ألقى بها على المقعد بأننى أتخفف من طقوس زائفة . وعندما اســتدرت لاخطو نحوها ، عريا لعرى ، كان صوت الرغبة قد استحال صراخا دائما ، وتلاشت الغرفة بكاملها ليبقى صوت الرغبة والعرى الرحب المنتظر باتساع الفراش . وصوتها المستلقى على ظهره يرفع راسه بجدائل شعره المنسدلة الطـــويلة فوق الوسادة ويهتف بى .

ورايت البحر خلفى . كانت الغرفة موصدة والزجاج

الضبابى يمنع الرؤية ، لكنه كان خلفى ، وخلف النافذة ، وخلف الغرفة كلها .

— تعال !

بدأت اسمعه خلفنا . كانت الجياد تركض وصوت سنابكها يتناثر من أرض الشوارع الصخرية ليندفع فى اقواس هائلة مصطدما بزجاج النافذة . وأحسست بالخوف من أن يعود الرعب يحتلنى من كل ما يطاردنا بالعذاب ، ونهرب منه صوب الكهف . لكنى سمعتها وصوتها العارى يتدثر بالاغراء والدهشة :

— لماذا لا تأتى ؟!

قفزت الرغبة عمياء تتعثر فى اشياء الغرفة . والعرى الممدود الذراعين قاهر تكتنفه الظلال لكنها لا تخفيه ، بل لا تملك أن تغزوه . يمطى فى غموض يحمى والرغبة العمياء تصرخ فى وجه الصمت المستلقى بطول العمر ، بأيدى لا ترى أبواب الدخول . والعرى يسطع فى الظل بابتسامة عارية بلا خجل ، وأبواب محطمة المزاليج ، ويهتز بصوت السؤال: « لماذا لا تأتى ؟ ! »

وقبل أن تصرخ الرغبة فى اتجاه الصوت كان ظهرى مفتوحا ، وصوت البحر يتدفق بالرياح مجتاحا فى موجة خاطفة بأضواء ماتت من طول ما لبثت بالقاع كل نصاعة الشاطىء القريب ثم ناكصا فى جذر وحشى . وبين المياه السوداء رأيت جسدى يسقط فى البحر ويهبط حتى تهبط أطرافى المشرعة وهى تلوح طلبا للنجاة ، « لا تخف » ، سمعتها وهى تمد ذراعيها العاريين حولى . تنفست عيناى

فرايت وجهها يحمل وجهى ، والابتسامة العارية عادت تتدثر بالصمت تحت عينين مغمضتين . واصابعها العشر تزحف فى خطى دائخة بحثا عنى . وعندما عرت رجتنى بحزن :

— قل لى من أنت حتى أدعوك باسمك .

وصك حزن شفتيها صدرى .

وجاهدت ان أذكر اسمى فما وجدت . يوما ما الصقوا بى اسما لا اذكره ، وفيه أب لم أره حتى الآن . وعندما سألتهم عما اذا كانت لى أم أم لا . شحبت وجوههم وقالوا كلاما لم أفهمه فآثرت الصمت ، ولما أعادت السؤال سألتها بحزن أن تعطينى اسما .

— واين اسمك ؟

— فقدته لانه لم يكن لى . كان هبة الغرباء . ولذلك لم أحبه . وها أنذا كما ترين أحيا عاريا منه .

ضمتنى أكثر وبطول جسدى شممت العطر الغائب . كان ينضح وينتشر كالمساء ببطء ، ويتوهج مع الوجه الذى سانقتنى وينحنى على وجهى بخوف :

— سأسميك « حبيبى » .

لمعت «حبيبى » ناصعة البياض ، والمرأة البيضاء تنشر جدائلها وتجرى حافية القدمين على الرمال الساخنة فى اتجاهى بالبحر ، والصغير يزحف بفرح منحدرا من فوق الرمال نحوى فى الماء وأنا أضحك له وأقول : تعال . وضحكته تتسع لى . كان صغيرا وحلوا ، أجمل من الدمى

التى يلعب بها اطفال جاءهم بها أباؤهم . وكنت ذاهبا اليه لكى آخذه فى الماء لنلعب معا ؛ عندما انحنت فوقنا نحن الاثنين وصرخت : حبيبى ! .

وفجاء كان يتأرجح بين يديها وراحتاه الصغيرتان ملوثتان بالرمال المبتلة ، ولم اكد أفهم شيئا والمربية تسرع نحوى . ضحكت لها ، وأذا بوجهى يشتعل بالالم من صفعتين وذراعى يصرخ من قرصتها . احتضنت ذراعى وانا اتألم ونظرت فى وجهها بتساؤل تغمره الدهشة فسبتنى . احمر وجه المرأة البيضاء ، أزاحت الصغير على ذراع واحد ثم مدت يدها الكبيره البيضاء بسرعة ومسحت وجهى وأحاطتنى بهـــا بينما تنحنى لتقبلنى . ورأيت الدموع تبرق فى عينيها فدفنت رأسى فى صدرها وانخرطت فى البكاء . كان العطر ينفــذ من صدرها ويحتضن وجهى هامسا بصوت مبحوح : يـــا حبيبى ! . وراحة يدها تضغط بحنو على ذراعى وتزيـــل الالم . لكن المربية مدت يديها كحداة وانتزعتنى من المـــرأة البيضاء والصغير يضحك لى. شدتنى ثم أمرتنا ، انا وكل الاولاد بالابتعاد ، وتقدمنا فسرنا وراءها ، بعيدا عن العطر حتى افتقدته . لكنه عاد الليلة يحتضن راسى وصـــدرى وذراعى وساقى ، وابتسمت لها بحـــزن فقبلتنى فى فمى ونشرت أذرعتها حولى ورجتنى أن اسميها : « حبيبتى » . تأملت عينيها طويلا وهما تومضان لى والفرح تائه فى سمائهما أيضا . شعرت بالاسف لها وابتسمت . ضـــمتنى وظلت ترمقنى طويلا ثم انهالت تقبلنى فوق جبينى ، وفوق خدى ، وفى فمى ، وعيونها تسبح فى الدموع وترجونى أن أضحك أن أفرح أن آخذها أن أعطيها أن أتمنى أية أمنية .

وتفتحت بين يدى : رحبة الصدر والابواب والطرقات، وصوتها الساكن فى حضنى ينسكب فى داخلى بالنـــداء من

كل رجائها ، وظلالها الرطبة الساخنــــة أمـــام الابواب والمنعطفات وفي التداريق الى الداخل ، نعطى وعدا بانتهاء التخبط الذى كاد ان يحرق العمر في التجوال املا في العثور . واحتويتها بين ذراعى بجماره راغبا في الولوج الى حيث اجد وجها لرغبتي المتطلعة الرأس . والتفتت بعنقهـــا نحوى بسرعة وطوحت بجدائلها فانهمرت الخصلات الطويلة تغرق راسى بظلال ينزلق نوقهـــا الضوء . ولمـــا جمعت ملامح كل منا تلتصق وتغوص بملامح الاخر ، واخذنا نتبادل التنفس ادركنا بتغير ايقاع النبض ان كلا منا بدأ ينجـــذب دائما كيانه نحو ذاته في الاخر .

من أين انت ؟

ومن اين انت ؟

وكيف لم يلتق الخطى منذ السقوط في الوجود !! .

ولكم ضلت الخطا منذ الايام الاولى البعيدة : كنـــــا كثيرين جدا ، ونحيا معا ، وكنا متقاربين في العمر ونرتدى اردية من نوع واحد ، ونتناول طعاما واحدا ، والتى تنـــام في غرفة مجاورة بالليل هي التى بدأت تعلمنا الــــكتابة بالنهار . وكنا أبرياء حتى عرفنا الكتابة ، أبرياء في أسرتنا ، رغرفنا ، والفناء محاط بسور عال به باب لا يفتح الا عندما يسمحون لنا بالخروج الى البحر .

ولم نكن نعترض على اى شيء لانه لم يـــكن ثمـــة احساس ضد أو مع الاشياء أو الاشخاص حتى جاءتنــــا المربية متجهمة ، كما لو كانت مرغمة على ما سوف تقوم به من أجلنا ، وأخذت تخط على لوح خشبي أسود خطـــوطا جبرية . كانت الخطوط في أول الامر تأخذ أشكالا مسلية ،

شكل العصى . والانية . والحبال الملتوية ، والسياط المعقودة الطرف . والسكاكين ومناجل الحصاد . وأمرتنا أن نصيح وراءها : ألف ، باء .... وبالليل كانت تغمرنا سعادة جديدة طارئة . وفى الايام التالية صحنا وراءها : أم . أب . أخ . ارض . سماء . اله . كنا قد عرفنا الحروف ورددنا الكلمات ، لكنا سألنا عما تعنيه الكلمات . ماطلتنا فى البداية ثم جعلت تكلمنا عن اشياء لا نفهمها . ومن المعاملة القاسية التى كانت تعاملنا بها بعد كل سؤال . أحسسنا أننا ننزع رغما عنا براءتنا ونفقدها ونحن لا نجد مفرا من أن نرقب الكلمات : كيف تتكون وتوجد وما الذى تعنيه ؟

وامسى الليل كلما جاء يخنقنى بالدائمة . واحسست أننا مكدسون فى غرفنا خلف أبواب مغلقة حتى لا نرى ما تخفيه المربية عنا . وأن النسوة اللاتى كن يمررن من تحت النوافذ ويلوحن لنا بعد ما ينزقن قليلا ويقذفن لنا بقطع الحلوى الصغيرة ، لابد يعرفن سر تلك الكلمات .

وفى أحد الايام جمعتنا المربية وسط الفناء ثم سارت بنا حيث الباب الذى انتظرنا أمامه حتى انفتح فرأينا الشارع والنسوة والرجال والاطفال وهم ينطلقون فى كل اتجاه ويتكلمون ويصمتون ويبكون ويضحكون ويسيرون ويتوقفون حسبما يريدون هم ، وليس حسبما تريد المربية . فظللنا نسير بجوار الحائط من الخارج حتى شريط الترام ؛ وقفنا متماسكين بالايدى حتى مر ثم واصلنا السير حتى رأينا البحر ومشينا بازائه حتى هبطنا فوق الرمال الممتدة الناصعة . وحدث أن وجدت المرأة التى كانت تقذف لى بالحلوى من النافذة وهى تسير قبالتنا من عند موقف الترام . ثم نستريح على أحد مقاعد البحر القريبة منا ونحن نلعب . لوحت لى

بيدها فذهبت ناحيتها ووقفت أمامها . فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها قطعة كبيرة من الحلوى . تلفت حولى فوجدت المربية لا ترانى . مددت يدى وأخذتها منهـا . قالت لى : « كلها حتى لا يخطفوها منك » فبدأت آكلها ببطء . سألتنى عن اسمى فأجبتها . ابتسمت بحزن فظللت أنظر الى حزنها وتوقفت عن الاكل . قالت لى : « كل يا حبيبى » فعدت آكل ، ولكنها أصبحت غير حلوة . نظرت لى فدفعت بالجزء المتبقى فى فمى حتى لا تعود الى الحزن مرة أخرى ، مسدت شعرى وربتت على وقالت وهى تبتسم لى « رح العب معهم حتى لا تضربك » . قلت لها أنها ضربتنى بالامس . هزت راسها بشدة وسألتنى لماذا . قلت لها لاننى لم أفهم كلمة « أمى » . شحب وجهها ثم احمر فجأة . وفتحت حقيبتها وتناولت منها المنديل ثم جعلت تمسح أنفها الصغير وبعدها مسحت عينيها بسرعة . دهشت وسألتها ان كانت تعرف أمى . قالت لى أن أمك حلوة جدا ، فسألتها أين هى ؟ . وهل تلبس مثلها هكذا ؟ وهل معها حلوى ؟ . هزت رأسها نحو الارض وعاد المنديل يمسح أنفها الصغير ثم عينيها المبتلتين بسرعة .

ارتعدت مع الصوت الذى اخترق راسى من الخلف مناديا على بحدة فالتفت الى المربية ثم ادرت راسى اليها هى قبل أن أمضى فانحنت على وقبلتنى بسرعة . وقبل أن تبتعد سألتها : بخوف : « متى ستأتى أمى » ؟ . فلوحت لى وقالت أنها لابد ستأتى اليك .

وتكومنا مع غروب الشمس وعدنا نقطع الطريق فى طابور طويل حيث ننفذ من الباب الضيق الى الفناء الكئيب الى الغرفة والليل خلف الباب المغلق . همست للراقد

بجواري : ان « أمنا » سوف تجيء . برقت عيناه وسألني : متى ؟؟؟ ولما سمعنا الاخرون غادروا الاسرة وتكوموا حولي فجعلت احكي لهم عن « أمنا » التي سوف تأتي ومعها كل ما نحلم به من أشياء حلوة ، ولا تضربنا أبدا وهي تكتب لنا كلمة «أمي». فرحوا كلهم ؛ وبدأ كل منهم يحكي عما سيطلبه منها عندما تاتي لدرجة أن احدنا أسرع عندما فتح الباب وأطلت منه المربية فسألها بفرح : هل حقا أن أمنا سوف تجيء ؟ اكفهر وجهها فجاة كيوم عاصف وسألته وهي تهدده عمن قال ذلك ، فأشار الي . جريت محاولا أن أختبيء في الركن . لكنها جرت خلفي وانتفضت علي وظلت تضربني على وجهي وعيني وفمي كثيرا . وأصابني الرعب والحزن وأنا احس بالجدران خلفي جامدة لا تسمح لي بالاحتماء بها . ولم اجرؤ على البكاء الا بعد ما خرجت واغلقت علينا الباب . استسلمت للبكاء وأنا ادعوك يا أمي . وفي جوف الليل ، وكلهم نائمون مع أحلامهم المفزعة حولي كنت أنصت تجاه البحر آملا في سماع صوتك . لكن البحر كان يصيح بخشونة على البعد دون أن يجعلني أسمع صوتك . وفكرت في أن الابواب المغلقة هي التي تخيفك وتحول بينك وبين أن تأتي . وأن من الاجدى أن أظل أنتظرك عند البحر حتى تأتي .

بت الليلة التالية كلها أنتظرك تحت احد كراسي البحر حتى غلبني النوم .

ورأيت البحر وهو حولي تماما بلا سماء أو ارض ، وجسدي يتجول في الدفء بلا خوف من أي كائن أو أي حدث . ولم يكن يعذبني التفكير في الطعام ، أو الاحتماء أو أية رغبة أخرى . كان البحر الدافيء يعطيني كل حاجتي

بلا ضجة . وجسدى يتبادل والمياه الموج والمرح الساكن وفجأة احسست بغضب البحر والامواج تتناثر لى وتدفع بى الى عالم مختلف . كانت قسوة قبضة طاغية تدهمنى وهى تحيطنى ثم تجذبنى بشدة نحو مراجعة الموت . صرخت والموت يندفع مع الصدر ليبدأ حياته هو . وجسدى تؤذيه الرمال فى السكون والحركة . ولما فتحت عينى لم أر سوى دائرة الزرقة الصدئة الممتدة فوقى . وتلك الرمال القاسية تحتى . وصرخاتى تستمر ثم تنتهى ولا شىء يعيدنى للبحر الدافىء . وبدأت تلفحنى رياح البحر الباردة وتستحيل الى سياط حول جسدى الموغل فى الضآلة والطراوة .

« ما اقسى رياح البحر الباردة » .

كنت ارتجف بها وهى ترتجف بين يدى رغم العرق الذى يغمرنا معا والعذاب يحتل ملامحها حتى اتخذ وجهها شكل العذاب ، ومع ذلك لم تطلب منى أن أسكت . فقط ظلت مغمضة العينين . تجاهد فى دأب لاحتوائى بلا جدوى . سألتها أن نكف عن هذا العذاب فاحتضنت رأسى بقسوة وجعلت تقبل شعرى ووجهى وكتفى هاتفة بى أن اغوص فى كل جسدها برغم اى شىء ، وهى تبكى وترتجف .

« ما اقسى رياح البحر الباردة ! »

شددت عليها بذراعى واحتضنتها اكثر محاولا أن اغطى كل جسدها حتى اقيها برودة الرياح التى تعربد فى داخلى ، ولما لم أنجح مسحت خدى بشفتيها بامتنان صامت ثم رفعت صدرها فأحاط بعنقى تماما وعنقها ينحنى على ، وجدائل الشعر الطويلة الساكنة تتموج لاهثة حول رأسى .

واستبد بى الحلم الذى انتظرت فيه أمى تحت كرسى البحر ولم أرها الا بعد أن أطحت بقشرتى الجامدة وتدفقت بكل ما يصخب فى داخلى من عطش نحو النبع الذى اريده .

هويت مرتميا جفاف الرمال ، واخذت أزحف ملتمسا فى الجدب آثار القدمين اللتين قذفتا بى بجوار البحر وتاهتا عنى ، وفى الطريق كان العالم قاسى اللفح ، والاصوات التى تنطلق باليأس من استعادة ما فقدنه فى الجدب المحيط تعلو وتنخفض قبلما يزحف من داخلهم الموت ويلتف حولهم ويضاجعهم فيرتعدون بعنف ثم يصمتون وعيونهم الميتة تملؤها الدهشة التى يمتصها الرماد ببرود . وكلما ترامت الّى الصرخات أسرعت بالزحف متلمسا الاثر المفقود وسط جفاف لا يحد . لو كان خارجى فقط لما احسست كل هذا الرعب . ولكنه يجتاح داخلى بسطوة جلّيد يجمد اى نبت يرغب فى الحياة . وأعضائى تكاد تتوقف عن الحركة ، لكنى زحفت للمرة الاخيرة دافعا بكل ما تبقى فى من قوة حتى صعدت المرتفع الاخير وبدات أهوى ببطء نحو ما بدا حافلا بأضواء الموجات العذبة وسط الجفاف . وصوتها العميق ينفذ الى داخلى بنداء دائب لتائه عنها تدعوه بحنين يحترق ، وأنا أهوى نحوها مسرعا ، باسطا ذراعى نحو صوت النبع .

احتضنته وفتحت فمى الجاف ، ولما ذقت الطعم المفقود الموغل فى القدم ، أخذت أعب بلا توقف وهى تبتسم لى ، وفمى يطبق على شفاه الثدى الضخم الذى تكور وأخذ يتسع أمام عينى الملتصقتين به حتى أصبح هو كل ما يمكننى أن أراه ، وأحسست بأذرعتها وهى تحتضن راسى وأصابعها تتخلل شعرى وتضغط راسى نحوها بكل ما يستطيع الصدر

ن يطيقه ، وذقنها يتحسس راسى ويحكم الصاقها بالثدى
الذى نضخم وبدا كما لو ان خيوط من الدفء الحلو تندفق
لى منه . ومع ارتعاشاتها الهائلة سمعتها من خلال
الشىء وهى تنحب وتقبلنى . ومددت ذراعى ببطء وشددت
الغطاء فوق جسدها من اسفل حتى أعلى البطن . ضحكت
بخفوت ففرحت . استحالت ليلة صيف فاسحلت فمرا
يجمعنا الفرح وحركة النفس الذى بدا ينتظم منا معا كما
لو كان صادرا عن كائن واحد . وغصت خلف الرغبة واذا
بى للمرة الاولى أرى وجه رغبتى ، يتخايل مهتزا قادما ،
وهى تدفع نحوى بالموجات وتهدهدنى بفرح كأنه ياتيها منى ؛
وجسدها باتساع الموجات وانا أستسلم له وارحف متنميا
بداخله ، انقطع العطش وأحسست كم هى قادرة ، ممتدة
حولى باتساع شاسع لا تحده الزرقة الدائرة التى بدأت
تزهو فوقنا . وأنها أمن لا ينفد . واننى فى صدرها أملك
كل شىء ، واعرف فجأة أسرار الكلمات المجهولة التى
استحالت امامى باهرة الوضوح كنهار حقيقى . ومع الرى،
كان زمنى يتفجر بالاخضرار وكل جدب الماضى ينتفى تحت
التدفق الطويل المستمر ؛ والخضرة تزحف أكثر اسراعا من
أية رياح نارية ، وداخلى يسطع بالاضواء كلها ، وبهجة
لا تحد وأنا أرى كل هذا العالم الجديد وأستلقى مسندا
ظهرى على الصدر الام مواجها العالم بلا خوف . وتطلعت
الى وجهها الكبير الذى يطل على وراسى الصغير يستريح
على صدرها العريض ورجوتها : « الطرقات متوحشة
يا أماه ، ولا أحد غيرك مدلى يدا فى هذا الليل ، ودعانى
لاحتمى بحوائطه ، وكلهم أنكروك لما سألتهم عنك » . وقبلتها:
« لا تتركينى ثانية يا أماه ! » .

ابتسمت وقبلتنى كثيرا وهى تقطع القبلات بغمغمة
حبيبة : « أبدا ! » .

وسكنت وفوقنا يرف صمت هادىء ، ملىء بالاشـــياء الحلوه التى تعطى وتؤخذ بلا حاجة الى سؤالها . واستمر دلك كالحلم الذى نطالع فيه وجها كالابد . ثم اذا بكل ذلك يتوقف فجأة فى سقوط مفاجىء ، والصمت يطلق صرخـــة فوق الخضرة التى اخذت تحترق ، والنبع الذى غاضت منه المياه فجأة وفوهته تتلظى تحت الجفاف الحارق . ورايت امى وهى متشحة بالسواد ، وانا اتارجح على ذراعيهــا وهى تجرى ، والرعب يشلنى فلا اكاد أصرخ . والغبار يتصاعد من تحت فرارنا ، وغبارا هائلا يأتى من بعيد ، مليئا بالوعيد والصيحات ، والانفجارات التى تجىء من ناحيـــة البحر ، والسنابك الغازية من الصحارى المجدبة ، واللهيب يتساقط من كل صـــوب ، وعيناها اللتـــان تجريان بى تعكســـان كل ما يحدث وتتارجحان بفزع وانا اسقط فجأة من بين يديها الى جانب احد كراسى البحر ، وهى لا تملك حتى أن تقبلنى للمرة الاخيرة .

وسمعت حفيف ثوبها الاسود يبتعد ، وكل ما كانت تخاف منـــه يطبق على كل شبر حولى وبدأت أختنق بالهزيمة ، وأحسست بعرينا المهان وانا أصارع الاختناق . وتلقيت فى ذهول صامت ما صفعنى :

كنا هامدين والبرودة رغم العرق تبدأ فى الزحف الى جلدنا ، ثم تستمر فى زحفها الى الداخـــل ، وجســـــدها الذى كنت قد شددت الغطاء عليه حتى منتصفه قـــد عاد عاريا يثير الرثاء . والثدى متـــــدل بلون قاتم ، وعلامتان زرقاوان تحيطان بحملته التى ذبلت . وعندما رفعت وجهى الى وجهها هزنى ما ووجهت به ، وملامحها القاتمة متراخية فى اليأس . كانت خطوطا على الرمال المبتلة دهمتها موجة

وانحسرت ، وخطان من الدموع ما زالا لما يجفا بعد وعيناها معلقتان بلا مبالاة على نافذة البحر . وليس فى داخلهما أى أمل فى شىء ولا خوف من شىء ، كما لو كانتا قد سقطنا فجأة ومنذ لحظات فى الدهشة ، لهذا العالم .

واطلت التحديق حيث كانت تشخص ببصرها ، والنافذة الضيقة تبدو كما لو أحدثتها ضربات سكين فى الجدار ، غاضحة في وجودها كجرح غائر ومفاجىء إمتد حتى النخاع ، وموجات البحر في حركتها اللا مجدية تقوم بدور غامض تحت الدائرة الصدئة . والدخان البعيد علامة قصيرة العمر على رحلة وهمية تحدث دائما محفوفة فى كل لحظة بمخاطر الهزيمة ، وظللت هكذا حتى استحالت النافذة الى رسم .

أدرت وجهى بتساؤل نحوها . أمالت وجهها نحوى والتقت عيوننا ببطء اكثر وسكنت جميعها فى لحظة واحدة ولم نجرؤ فبدأت عيوننا تهتز وتتأرجح وتصنع دوائر لا تلتقى . ظل ذلك حتى اصطادت عيناى عينيها وظلتا ممسكتان بهما . حاولت عيناها أن تطيرا لكنهما يئستا ، فاستسلمتا لى . ظللت محدقا فيهما محاولا أن أعثر على خطأ واحد . لم تكن ثمة أخطاء . ليس سوى ما يهتز من بقايا الوهم طافيا على السطح وتدفعه الرياح نحو مصائد الرمال كى يقع ويجف ويتطاير فاقدا حتى ذكرى وجوده وتحت كل ذلك لا يرقد فى القاع سوى الرمال البنية والمياه المالحة تعوم فى حفرتين فى وجهها قريبتين من عينى .

وفكرت أن يوما ما ستهب الرياح من ناحية البحر حاملة اطنانا من العواصف الترابية وتظل تدوم وتردم مياهها ومياهي ، ولا يبقى من كل غذابنا سوى مخلفات العذاب: الجماجم التى تمارس نوعا من الحكمة : الا تفصح هى الاخرى عن اى شىء مما كان يجرى فى هذا الزمن الذى نفقد فيه كل ما كنا نملكه ، بل حتى ما لا نملكه ، تاركة الحيرة ازاء الصمت ، لكنه صمت يصفع صمتا آخر يحيط بنا وتولد فى جوفه كل عذاباتنا دون أن يأبه لها ، أو حتى يذكرها .

وشدنى استلقاؤها فى كل هذه التعاسة التى تحيط بنا . وندركها فى صمت الى أن اشد على وجهى ابتسامة لها . طرفت عيناها ولم تبتسم . عدت وشددت الغطاء عليها حتى الوسط ، ثم مددت راحتى واحتضنت راسها وقبلت الشعر الطويل المهشم المتناثر حول الوجه ، والعطر مازال يحلق فوقه كذكرى بعيدة تقاوم . قبلت جبينها وخديها والثدى ، حيث ترقد العلامات الزرقاء القاسية ، فانتفضت وشرعت تنتحب . احتضنتها أكثر وهى ترتجف ، وخيط من النيران يزحف من داخلى الى غصة فى حلقى وهى ضئيلة بين ذراعى لا تملك الا ثديين فارغتين ، ونافذة كانت ومازالت قدرها التعس وان لم تكن أكثر تعاسة من اداتى التى لا تجدى ازاء كل هذه التعاسة التى اخوض فيها .

وسحقتنى الادراك بأن لا شىء يحيا بهذا النهار . لما سطع فجأة رأيت رغبتى وهى تظلل عينيها ثم تيأس فتغمضهما وتظل تنكمش حتى تدخل تماما فى الظل بجانب الاعمدة الوهمية التى تداعى للسقوط فى اية لحظة . أدركت الرغبة

ذلك فلم تجاهد لكى تدفع ما سوف يحدث ، وكمنت فى الظل تواجه النهار الكاذب بكل ما يحفل به من اصـــوات ليست لاصحابها ، وحركة لا تجهل الشلل الذى يتمدد فيها فتتراقص ليطوح بها العجز على احد جانبى الطريق الذى لم يكن له وجود ، والذى صنعته خطانا التائهة فبدأ من لا شىء لينتهى عنـــد اللاشىء ورغبات اخرى غيرها تولد بجوار البحـــر وتعود لتموت بجوار البحر ايضا . وكل ما يحدث بين الميلاد والموت هو ما يغلفه هـــذا النهار المزيف بالحركة والالوان والاصوات . وشيئا فشيئا اثرت رغبتى الصمت . كثـــيرا ما كنا نتحدث قبل ذلك عن المخاوف والاحلام ، ما عانيناه بالامس وما سنصنعه غدا ، وكثيرا ما دفعت بى الرغبـــة للتجوال فى شوارع المدينة محاولا أن اعثر على طريق لا ينتهى فى البحر حيث كانت الرياح تثير عذابهـــا ، بحثـــــا عن مرآة . وها انذا أجدها تكمن فى النهاية بجوار أعمدتى فى الظل ، وكل المرايا تبـــدو بجوارها كذكرى مهشمة أزاحتها الى جوار الاعمدة .

وفى يوم سألتنى الرغبة أين ذهبت المرآة . لم احـــر جوابا . فأنا نفسى لا أعرف اين ذهبت ، ولا من اين جاءت ، ولا حتى من كانت ، واشـــارت نحو دائرة الزرقة الصـــدئة التى لا يعرف احد منذ متى وهى مغرقة فى هـــذا الصمت والصدأ . ولم أفهم اشارتها . ابتسمت وقالت لى اتذكـــر يوم ازهرت ؟ . قلت لها اننى اذكر ، ولم أزد جعلت البسمة تشحب شيئا فشيئا . فهمت أنها تود لو تزهر ثانية . وخشيت أن أقول لها انها طوال عمرها هكذا ، وانها لم تزهر مطلقا . وأن داخلنا هو الذى أزهر بالوهم ، ولكنها كانت كما أعرفها . تكره الكلام ، وتكتفى بما تراه فقط .

وحدث فجأة أن انهارت منى ، تمددت بجوار الاعمده واخذت تهذى . وتحكى بصوت عال عن الماضى . وتكلمت كثيرا عن المجد الذى تذكره فى صباها وسط اهلها ، وصرخت ثم انخرطت طويلا فى البكاء . وفجأة امندت راحتاها بأصابعها العجفاء وقبضت على ذراعى بعنف فولاذى وهتفت :

— أمى . اذهب وأتنى بها قبلما أموت .

ذهلت ، وخشيت أن تكون قد فقدت وعيها فى النهاية لتطلب منى هذا المطلب الغريب . قلت لها اننى لا اعرف أين هى فصرخت فى وجهى ثم عادت تنتحب وتقبل يدى بينما تغمغم :

— سأموت الليلة . ولا اريد أن يحدث ذلك دون أن اراها .

وجعلت شفاهها ترتجف دون أن تنطق . أحسست بالحزن يساقط ثقيلا فى داخلى . ولم أملك أن أتكلم وحتى لو استطعت فما كنت سأتكلم . يبدو أننى أصبحت مثلها مجبرا على أن أؤمن بألا جدوى من الكلمات . وعرفت كم من العذاب يواجه الانسان عندما يواجه ما لا تحتويه الكلمات . وفكرت طويلا ودمرتنى كل الطرق اللا مجدية وفى النهاية انخرطت أنا الاخر فى البكاء . انحنيت لاحتويها فى حضنى فى لحظاتها الاخيرة واقبلها ، لكنى انتبهت الى أنها مقطوعة الرأس ، ولذلك لم اجد وجهها لاقبله . والح الصوت العديم الملامح ، وخرجت عارى القدمين الى شوارع المدينة التى تنتهى جميعها فى البحر وتظللها زرقة صدئة صامتة ، وبيوتها كلها موصدة الابواب ، تنفث البرودة كمدينة

موتى . ظللت اقطعها من البحر الى البحر فى كل الاتجاهات وحنينى يطغى اليها ، والخوف من أن تموت يجعلنى أسرع بالخطى اللامجدية حتى غمرنى العرق وجف حلقى وبدأت أحترق فى جحيم العطش المستعر وأنا أفكر بصعوبة : « اما أنها ماتت منذ زمن طويل ، وربما بعد الميلاد مباشرة ، أو أنها تضاجع هذه الليلة واحدا ككل الذين ضاجعتهم طوال عمرها وهو يكذب عليها الآن فى كل ما يقوله عما سوف يمنحها من مجد » .

وارتعشت خطاى ، وسقطت عند البحر . يا
( ) :

ماذا تبقى منا ، حتى تجتاحه بتدميرك ؟ !

(مارس ١٩٦٧ ، ١٩٦٨)

عطشى لماء البحر

(الى : ((م)) : لقد هربت من الموت ، بعد ما فقدت حبك ، لاحبك هذا الحب المريع الذى أفقدك فيه للابد اذ تتحولين عنى وتسكنين الكلمات.) م.ا.مبروك

((لابد أن تنفخ فيك امرأة من روحها كى تصبح رجلا))

ميشيليه

(أيها البحر ترفق بالنى يطقونها بنباتات الصـــبار
فتقطع الصحراء ملقية بنفسها اليك . ولا تفزع
من وحدتك كلما ساطك العطش ناهشا صدرها .
فالان تجلس ايها البحر عارية على الصخرة الشرقية
تنتظرك فى نهاية الليل بعينين مضيئتين ، عاقدة
على ركبتيها صرة المخاوف كلها . فانزل ، وترفق ،
وادفع بالسفن بعيداً حتى لا يلمح اشرعتها القراصنة
فيداهمونكم عرايا الا من الحب الذى يطيح بـــكل
الاقنعة ولا يطيق ثقل الرداء !)

***

هل نجرؤ ــ أمنـــا التى فى الارض ــ أن ننـــاديك
الان ؟

يخجل فمنا ولا يخرج الصوت اليك . أما القلب فلا
تدرى ما الذى ينهمك فيه بعيداً عنا. متحاشيا المرورفىالطرق
التى تفضى اليك ، فالى هذا الحد صار يخجل هذا المطعون
بجرح بالغ منا معا والآنية التى حملنـــاها وانتظرناك كيما
تصبين لنا فيها ماءاً نشربه عدنا بها فارغة اذ صببت لنا بدلا
من الماء عطشا ، فاى لظى وقد شربناه كله ، واى امل لنا
لو استمر الامر على هذا النحو دون أن تتبدل هذه الابواب
الصخرية وظل هذا الحائط الهائل يوازى خطـــونا حتى
يرهقنا السير فنبدأ فى الركض ثم نجرى حتى تتحول صفرة
الحائط الى الابيض الذى يغشى بصرنا حتى الدكنة المفاجئة

التى تجرنا الى مدخل نرمى بأجســـادنا عليه فننزلق على صخر البازلت الداكن مقطوعا على هيئة باب ومنحوتا فوقه حارس براس افعى . اما من سبيل للداخل ؟

اننا نعرف انك لم تغادريه ابدا ، هذا الذى تتوارين فيه وارواحنا تحوم ضاربة بجناحيها من فوقك .

كيف هو الان ! اى انحائه أكثر خضرة وايها اكثــر موتا ، وهل اضطرمت النار فيه ام أن السنتها لم تشـــتبك بعد بحطب الحريق . واى ليل رائق ، بدلا من هذه الشمس الصدئة المائلة على نهار كاذب ، سيفرش الارض وقبـــة السماء لتتوافد وتملؤها النجوم التى ستجىء فرحة لتتربع ساكنة ملتفة بأذيالها المضيئة . واى الاصوات ستتعـــالى عندما سنقفز من فوق هذا الحائط الذى نعتليه الان . واى صمت مروع سنسمعه فنصرخ فرحا ، هذا الذى سيرمقنا اشبه بنمر ساكن . صمت يسبق الموت والحياة وفعل الحب بينما نشرع فى تصويب امشاط أقدامنا العارية على أرضـــنا التى تتجدد فتجتاحها الحشائش المنداة الطالعة بخضــرة فادحة من تحت أوراق بنية تعرت منها الاشجار التى سبق أن شق ثوبها الخريف. وفى هذا الصمت نشكل بالهواء الذى تبكى حناجرنا وهو يغادرها ، رغباتنا فى ســـماع أصواتنا حتى الغناء ومنتظرين للصوت : هذا الذى يجيئنا من أربعين فصلا : ساقت علينا الريح ، وغسلتنا بالمطر ، واجتاحتنا بالربيع ، وملات بطوننا جوعا وخايلتنا بالثمار ، لكنها لـــم تأتنا أبدا بهذا الصوت الذى نسمع حفيف تسلله من بيننـــا قافزا هذا السور الحجرى ونازلا خفيفا وماكرا ، وحامـــلا بثقة خنجرا الشمس شهقت اول ما رأته والهواء ضـــحك اذ أصيب بجرح أما الحرس ففزعوا وغشيت عيونهم ، لكن

البحر تغير صوته وها أنت تسمعه ينهض عاليا شـــاهرا سلاحه الذى يبرق بالشمس التى تضحك ، ويزرق بالظل الذى يختنق ، يحبو صاعدا متسلقا اوائل الحروف ممسـكا بعذاب وفرح بأول كلمة ليغنيها فيشرع للهواء شفاه تنفتح وتستدير دون أن يصدر عنها صوت مكتمل واطراف اصابع تفتح عيونها وترى اذ تحط كرؤوس طير تهبط برفق على جسد أم اغتالتها كل المسافات التى قطعتها عطشا . الان يختبىء هو تحت الثدى ، ومن دم القلب المفتوح ينسل صوت الحياة المهددة والنور يرف على حدود آخر الليل ، ويلوح فى العينين اللتين تتطلعان مطاردتين .

اطرحى تعبك الان ، واريحى على ساعدى راسـك ودعينى ابلل طرف ثوبى بريقى وأمسح عن جبينك والثديين قشرة الدم . اطرحى تعبك فها هو الموت يرتد عنـك فى أشواكه كقنفذ خائف . وانفض انت الغبار عنك واطـرح اغلال الساعدين واخلع الرداء الممزق والتمس منها حيـاة جديدة لك من تحت همود السطح ، من : الظلمة الناعمة ، فالنعومة اللزجة ، فاللزوجة الساخنة ، فالسخونة الدامية ، فالدم الفواح ، فالاذان المتلمس كضرير ، فالعماء الملـون ، فالالوان المحلقة ، فالشمس الوليدة المجنحة (على المـاء الجارى حارا راغبا فى الخروج لك منبثقا من عين مردومة لزمن طويل . وتندفعين فى البكاء والشهقات : « حمـــدا لك هذا أنت تأتينى فى صحرائى وتجرى على بدنى كلـه ماءك ! » أرفع بين راحتى وجهك المنكفىء أمامى مهتزا بجسدك كله ثم يعود منكفئا على راحتى فيتألق شـق قمـر يضىء بدقته البالغة ليل الغرفة وليل الشعر . كنت قد قلت لك اننى أحبه هكذا ، ومددت أصابعى الى خصلاته الثقيـلة حتى اختبأت بها راحتى . رفعت ذراعيك العاريين المضيئين،

وبراحتيك واصابعك الثمانية أزحت الخصـــلات على جنب حتى انفسح المفرق دقيقا مستقيما فقبلتها على جنبيك ، مغمض العينين ، فى دفء الشمس البعيدة على حزم الحطب فوق سطحنا ، وبدون مرآة فى يدها ، تشد بمشطتها الخشـــبية جانبا من شعرها الذى حلت ضفيرتيه وحددت منتصـــفه بأطراف أصابع يدها اليسرى بينما تغمض عينيها من الالم : هذا هو الوجه الذى كان غطاء رأسك الاسود أيام ردائك الاسود فى سنى ترملك السوداء يهيل عليه خصلات الشعر ويضل الاخرين عن ضوئه . لكنك الان تفتحين لى الطريق اليك بيديك فأنحنى بشفتى على جبينك الذى استراح عليهما وسكن . واذ خفت ضجة تنفسنا وأصوات الدماء ، سكنت الريح فى فروع الاشجار وانحنت على ملامح وجهك الذى شرع فى الصحو والتفتح على وجهى : انا الان طفلك الذى فاجأه ماء النهر فخلع الرداء والقى بنفسه اليه ثم خـــرج جاريا اليك حتى وقف متقطع الانفاس فرحا أمامك . وبينما تتأملينني وانا داخل فى الظلمة بعريى عليك ، ينبض عريك لى فيتسع ضـــوء ، وتريدينني فتأخـــذ الاضواء تتخطفنى وتسمعنى غناءها مبحوحا وخافتا كالماء ــ ظامئين اليه ــ يأتى تسبقه رشرشـــاته حاملا عصفه المتوهج اذ ينهض فى الفضاء نازلا بالرى لحر جسدى وصحراء جسدك التى تفتح أشداقها بينما ترفع الساقين لتخلى الطريق بصرخات حادة وقصيرة مهللة للداخل : أدخل فأنقض داخلا وبينا تتلقيننى بعنف تصرخين شاخصة الى تحت بيننا : الدم ! اتصـــايح فرحا وهو ينـــدفع ويعلو بموجاته الثقيلة الدافئة سيقاننـــا وجذع كل منا : « لم الخوف وهذا هو الذى به حلمت ، وها أنذا أراه » . تديرين جانبا وجهك الذى تغطيه فوضى جدائلك خافية فرحك بخجل : « أكل هذا الفرح وتخجلين » ؟ وأعاود الدخول فيعاود الدم انبثاقه وتفزعين فأضحك غارقـــا فى

الدهشة وانا اجذبك الى : « أمن دمنا نخجل » لا ! وتندفعين خجله وضاحكه الى بينما يغمرنا معا كلما دخلت وخرجت حتى كانت المرة السابعة اذ نهضت وعاودت اخذك عنـوه فخشـيت خشية هائلة وصرخت بفرح والارض تهتز فيـدوم الـــدم وتستسلمين راسخة تحتى بينما تلفين ذراعيك حول عنقى وشعرى وتتشبث أصابعك العشر فى عنف لم يكن لك ابدا من قبل والدم ينداح تحتنا . لم نكن نتبادل الـكلمات او الاصغاء ، بل جسدانا يصدر عنهما الصوت ويسمعانه : الآن . هل صرت رجلك ؟ خبأت راسك بصـدرى : رجلى فقط ؟ ! لا أعرف كيف حدث ونهضت على بديل كل الرجال يدخل على اذ دخلت انت فقبلت شـعرك : وانا لا اعرف كيف حدث أن اتيتك فرفعت بديلة كل النساء جذعها العارى الى من تحتى طارحة شعرها المحلول للوراء . قبلت وجهى فخبأت رأسى بصدرك وتغطينا معا بجدائل شعرك فلفنـا بظلام يبرق : أترين الى أى مدى صار حبنا ؟ هززت راسك مشيرة بأهدابك الطوال لاخر حدود البحر الطالع للسموات: اترى مدى له ؟ شهقت اذ ركضت عيناى فغشيهما نـوره الساطع يرتعش بعيدا ، فناديتك بخـوف . احتضنتنى فصرخت مرتجفا : لم تركتنى ؟ ضممتنى فى حضنك اكثـر وكدت أموت من البرد فتطلعت اليك . نظرتنى واتسـعت عيناك اذ وقعت فى حيرة طائر أطبق عليه فخ : انا معك وابدا لن أتركك فلم كل هذا الخوف ؟ اندفعت فى النحيب لائذا بصدرك فتعالت الدقات واذا التفت بحذر ناحيته رأيته: ساطعا يفر مجتاحا المدى فى طرفة عين ويوشك أن يغيب صرخت وأنا الوذ بك بينما تقبلين وجهى بين راحتيك : مالك؟ بكيت حتى هدأت تحت وجهك المنحنى على ، ورأسى فى حجرك بينما تمسحين بأصابعك عن وجهى الدموع وارتجاف شفتى

وشعرك لا يكف عن الانهمار ليحيط بوجهى ، وعيناك
قلقتان وتقاومان البكاء بابتسامات ترتعش وقبلات قصيرة
وانا لا أقدر أن ادفع ذراعي لاشير الى ما اراه يتربص بى
وبك : شفتاك يرتعش خط التقائهما الدقيق الشاحب امامى
ولا تجرؤا أن تبوحا بينما يشهرون السلاح بين يدي وجذعك .
ارفعى الى وجهك بينما اكلمك : هل كان يليق بك — أيتها
الام المقدسة — بعد ما غلقت الابواب والنوافذ ، وأسقطنا
عن جسدينا الرداء واجتاز كل منا أسوار الاخر ونزل بأرضه
فأكل من فاكهته وشرب من مائه وبناره تدفأ ، أن تروعينني
هكذا فأرتعد اذ تتبدين امامى بشفاه لا تعرفنى بينما احيطك
بذراعي وفوق رأسينا تضرب روحك بجناحيها وأمد اليها
يدى فتنتهى نهايات أصابعى عند حدود ضوء الجسد ،
وملامحك التى استراحت بذقنها على كتفى وقبلت كل رعشات
صحوها فى التقائنا ، تعود برأسها للوراء وتنظرنى الان
كما لو من خلف زجاج ، ولا ترسل نظراتها لى ، بل لما
لا اراه . اشدك الى فتضغطين وجنتك وجدائلك بكتفى
وحضن عنقى بقوة وتسكنين . أمسح شعرك وأرفع بين
راحتى وجهك وأديره لى فتدور النظرة نحوى وتقف على
مسافة وتواجهنى بصمتها الذى يحلق عاليا ، وعيناك تهبط
رموشهما الطويلة السوداء كستائر ثقيلة تنسدل دفعة
واحدة ، انحنى عليك هازا كتفيك فتتكاتف الرموش ، وأبدا
لا ترفعينهما فى عينى ، بل تقومين ببطء لتستديرى بظهر
عار يغادرنى ويبتعد ومازالت واضحة عليه حمرة اصابعى،
وبظهرى تستعر نيران أظافرك التى حفرت مكانها كعشرة
سياط . وفى مرآة الزمن التى تستطيل لا أرى سوى
ظهرك الذى يمضى وأخشى أن أظل وحتى الموت أراه وأعض
شفتى يائسا : فهل يستدير الى آتيا ، ولو فى الحد

الفاصل بين تخوم الحياة وتخوم الموت وجهك ، وعلى وجهى



ينحنى فأموت بفم حي يشب اليك ويبقى دافئا ومتفتحا بندى قبلتك كدهشة متوردة أبدا ؟ . وهل لى ان أعـرف يومـا ما الذى أفزعك الى هـذا الحد فجفلت متراجعـة للوراء لا تصدقين نفسك ولا كل الذين يتطلعون اليك بحب ، تقتلعين الورود من ردائك ، ولون الورود من اظافر اصابع القدمين والراحتين ، ووهج الشمس من قرطك ، ودكنة الليل من شعرك . وصليل جريان النهر من صوتك ، والمواجهـة من نهوض صدرك وعلو جهتك لتنكفئى لائذة بقبو ، متشـحة بالسواد ، مولية للابواب التى تفضى الى من يحبونك ظهرك، وتسقطين فى الايام التى تستحيل الى ليال ، والفصول الى خريف ، والفرح الى ذكريات تنأى وتتلاشى مالئـة رؤاك بذبول الوردة وانطفاء النجم ، والموت الذى يزحف ويقترب حتى يوشك أن يلمسك . أما من قدرة على تلقى كل هـذا الفرح الذى عشته بنفسك أيام كنا نلتقى سرا ؟ عن نفسى فاننى مستعد لمواجهة الموت ذاته شرط أن تواجهى بحبنـا الاعداء والاصدقاء ، اذ ما معنى أن تحرصى على اخفاءه ، وكلهم يعرفون انه ينمو بيننا ، ولا أنت ولا أنا بقادرين أن نخفى ما يفعله بنا . هذا الذى أطاح بصوابك فأطحت أيامها بكل أرديتك واغطية راسك المتربة ، مطوحة بجدائلك السود اللامعة فى الهواء ، ورشقت فى شعرك ، على جنب ، وردة كبيرة ، واقمت رموشك عاليا وتطلعت لى وللطريق وللدنيا التى انتبهت اليها مرة أخرى فوجدتها . فكيف أصدق اذا أنك غير قادرة على الفرح والازمنة الحية القادمة لكلينـا وليس امامها لتجرفه سوى ما يخنق أرواحنا من نفـايات الازمنة الماضية ، وذكريات موتانا .

أم أنك تفعلين ما فعلته من قبل ، يوم تسللت انـا بعيدا عنكم يوم البحر ، حتى السور الواطىء واعتليته قلقا

حتى الموت على ما بيني وبينك : كنت نجلسين معهم وكانت اصواتهم هى التى نجيئنى كلما انخفض صوت ارتطام الموج بالصخور ، ولم اكن موليا وجهى ناحيتكم . الا انى كنت اصغى جيدا ، حتى عندما يعلو صوت البحر . ربما أميـز بينهم صوتك . كان الماء يظلم اذ يغادره على انساع البحر كله ضوء الشمس التى صارت برتقالية وبدأت تنحدر صوب الماء ، وكنت احس بالبرد وباليتم معا : والماء يعتم بعـد ما فقد ضوءه الذهبى ، رفعت راسى المكتفىء بلهفة وأدرته : اهو انت ؟ . كان شعرك يتطاير باجنحة عديدة وأنت تقفين بهدوء غريب خلفى مباشرة . وتطلين على من أعلى : « لم تبتعد عنا وتجلس وحدك ؟ » اختنقت فلم أستطع الـرد فتأملتنى صامتة . قلت أول ما استطعت النطق : لم كل هذه القسوة طوال اليوم ؟ ظللت فى وقفتك تتاملننى فى صمت وذراعاك متشابكان على صدرك ، وبهدوء أكثر : أولا . امسح دموعك حتى لا يرونها ! » . بدأت بشعرى حتى لا ينتبهوا وأنا أفعل ثم مررت براحة يدى على وجنتى وعينى . ظللت صامتة ثم تكلمت وأنت تتأملين الشمس التى غـرق نصفها ولم يبق منها سوى ما يرتجف فوق حد السـيف : « ستعرف عندما تكبر أنك ، وفى أوقات كثيرة ، سـتكون مجبرا على أن تواجه الذين يتعقبونك بوجه آخر . وجـه لا يخصك ابدا ، كما لو أن ما يوشك أن يدمرك لا وجود له» . وأومأت بنصف التفاتة من رأسك : « علينا الا نجعلهم يلاحظون أى شىء بيننا » . وكانوا قد ابتعدوا عنا وانهمكوا فى اللعب وتعالى ضجيجهم ، وعلى وجهك يستقر قناع بشفاه تنبس بالكلمات دون أن يبدو من هيئتك أنك تتكلمين ، وملامحك ـــ أقصد ملامح القناع ـــ راسخة وحجرية كما لو أنك لم يسبق لك أبدا أن تطلّعت الى بحب . وكنت أواجهك كمن ـــ فجأة ـــ يواجه صحراء لم يقطعها من قبل وعليه أن يجتازها ، وكان

على أن ابذل جهدا خارقا كي أصدق أن تجاهلك لى طوال اليوم لم يكن تجاهلا ابدا . ورجوتك : ايمـكن ان نجلسى معى لا » . ظللت واقفة وهززت راسـك وانت تحذريننى بصوت خافت : « انهم وراءنا » انكفات مغتاظا احـدق فى الموجات وهى تخبط أحجار السور . كان الماء مطوقا بالصخور وبسور الكورنيش . اما انا وانت فكنا مطوقين تماما بهم . بحثت فى جيوبى عن علبه السجاير حتى وجدتها . واطلقـا الارتباك وهواء البحر أكثر من عود ثقاب وانا احـاول أن أشعل لك سيجارتك . ضغطت على راحتى المحيطتين بالعود المطفأ كما لو أنك تسرقين الكحل من العيون ، فاشـعلت سيجارتى أولا ثم قدمتها لك وأخذت سيجارتك واشـعلتها لى . شرعت فى التدخين بعمق بينما تمرين بأصبعك الصغير على شفتيك الرقيقتين والشاحبتين كعادتك عندما تستغرقين فى التفكير والتفت الى : « أنت لم تزل طفلا ! » هززت رأسى متسائلا . اقول لك : « انت تذكر الاحداث الماضية . عندما انفجرت وفاجأتنا جميعا . نحن وهم . أيامها فقـدوا هم صوابهم من الرعب ليومين كاملين ، وأول ماستعادوا سيطرتهم شرعوا بذعر يطلقون الرصاص على من يصادفونه فى الشوارع بعد أن عاد الناس لبيوتهم ، ويوجهون الضربات دون تمييز . وكنا فى وقت متأخر من الليل وفى وضع بالغ الصـعوبة وأصوات الرصاص تصلنا من بعيد عندما توالى الخبط على الباب بالحاح أزعجنا جميعا . أدخلت الاولاد والبنـات الى حجرة نومى اذ كان على أن أفتح لهم ورحـت وفتحت وكانوا هم . نظرت لهم وكأننى لا أعرف من هم . دفعـوا الباب وأزاحونى . ظللت انظر لهم وأنا ابدو هادئة . وجهوا لى الاسئلة فسمعتها وببطء شديد كنت أرد عليهم كما تـرد ست بيت على رجال لا تعرفهم . قلبوا الكتب وبعض الاشياء بسرعة ونظر من يأمرهم نحوى طويلا فسترت فتحة صدرى

براحة يدى وأنا اضم الياقة بارتباك حول عنقى وأنظر للارض . ناداهم فرجعوا اليه . انصرف وتبعوه فأغلقت الباب باحكام ودخلت حجرة نومى أطمئنهم الى انهم ذهبوا . تصور ما الذى كان يمكن أن يحدث لو تصرفت بأى شكل آخر ! » .

تأملتك واحسست شفتاى ترتعشان وأنا ارقب شفتيك بامتنان عميق وبرغبة فى تقبيلهما وتقبيل وجهك كله ويديك ، فاذا هما تترددان ووجهك الشاحب أيضا وعيناك ترجواننى أن أقدر ما تعانينه من أجلى ، وفى اللحظة التى كدت فيها أن امسك بيدك المأخوذة الى جانبك جاءت وفاجأتنا فرفعت ذراعك عاليا مشيرة للغروب وانت تحاولين أن تكتمى صرختك: « هل رايتها ؟ لقد كان جمالها غير معقول وهى تغرب ! » وأحطت كلا من كتفيك براحتيك وأنت ترتعدين وتكلمينها فى حنان بالغ : « الا تحسين البرد؟ » خلعت سترتى الخفيفة ومددت بها يدى لكى تضعينها على كتفيك ، لكنك وأنت تقاومين الارتجاف أخذتها ومددت بها يدك للابنة . ضحكت وهى تلتفت لى وتشير للسترة : « الا ترى أنها واسعة جدا ؟ ! » ابتسمت لها وأنا أنتبه الى مرحها وأن شعرها مفروقا من المنتصف مثلك بينما كانت ترد السترة لك . فردت أصابعك التى سكنت واستراحت على السترة لبرهة ثم رددتها الى .

طوحتها على كتفى وأنا أدفع ساقى وأستدير هابطا من فوق السور وأسألك أن نمضى فورا لان البرودة صارت شديدة بالنسبة لك . لوحت لهم فجاءوا الينا وتحلقوا حولك . وبدلا من أن انتزعك من بينهم كما أنتزع وردة محاطة بغصون محتشدة بالشوك كان على أن أتحمل وأتركك ماضيا وحيدا فى

طريق سيطول بى ثم يدور من الخلف قاطعا حارات عديدة لكى أطلع لك . لكنك اليوم لم تفتحى لى الباب ؛ بل تركت الابنة هى التى تفتح ونجيئين الى مخبئة جسمك فى ثياب ، وقدميك فى حذاء بقفل ، وتقبضين على المنديل الصغير بيديك كأنما تقبضين على كيانك كله بينما تدارين عينيك برموش مسدلة طوال الوقت فى جلستك الصارمة واضعة ساقا على ساق ومحيطة نفسك بسور الصين العظيم . وأنا بروح عارية لاتكف عن الاندفاع والتحليق فوقك ، أجاهد كى أدارى ارتعاشات يدى بوضعهما تحت ابطى أو التشبث بمسندى المقعد وأنا أتكلم حتى أفقد صوتى ، وانت صامتة طول الوقت وعندما تشرعين فى الكلام تشرعين . بضربة واحدة ، فى الاجهاز على : « لن نستطيع أن نستمر ولابد أن نفترق» ثم تميلين قليلا بوجهك للناحية الاخرى وتغرسين أهدابك ، كما لو أنها خناجر ، فى وبر السجادة . بينما تسوى أصابعك وبينها سيجارة اشتعلت مما قبلها ، ثوبك المحبوك على فخذيك فأصعق شاخصا لك راغبا أن اضمك كلك فى يد واحدة ، ثم أكور قبضتى الاخرى وارفعها عاليا ثم أهوى عليك وبضربة واحدة اقسمك ، كرمانة ، الى نصفين علنى أرى وافهم بوضوح قاطع ماذا بداخلك ، لكنك وانت على بعد ذراع واحد تحلقين أبعد من حلم لم أكد أستيقظ حتى استحال على أن استعيده .

كان الوقت متأخرا جدا وانت تقاومين اى محاولة للاقتراب أو النفاذ اليك ، بل حتى أن تصلك كلماتى ، والنظرات التى كنت أثبتها على كيانك كنت تتحاشينها فصمت وراسى يسقط منى مائلا على ظهر المقعد ولا أملك قدرة على النهوض اكثر مما تملك جثة رجل حز عنقه توا . ولم تفعلى اكثر من ضم صدرك بذراعيك بحزم ، وعلى ان أصدق

ـ ولا أعرف حتى الان كيف يكون ذلك ـ أنك كما تقـولين لم تعودى تحملى لى حبا .

كنا عاريين عندما اختبأنا فى ليل شعرك وانزلقنـا بنعومة للنوم حتى فزعت على الظلمة المطبقة تخفق فوقنـا باتساع السموات كجناحى خفاش وهم يندفعون نحـونا بالسلاسل تصطك فى أيديهم بعنف لتسقط أصـواتها على عرينا فاصرخ لاذا بك : « ضمينى » لكنهم كسروا البـاب فقفزت هاربا بك . ومواصلا الجرى عريا وأنا ادفعك أمامى عارية حتى وجدنا بابا فى الناحية الاخرى من الطريق فاندفعت اليه وصرخت عليك لتلحقى بى وجعلت أخبطه بجسـدى وراسى لكنى انكسرت كعصى وارتددت للـوراء اثر نهش أسنان حادة وانغراز ناب فى ذراعى . انخلع فكى من الالم وهممت أن أصرخ لكن يدى هى التى صرخت وانا أتـلوى باكيا ملتفتـا للخلف فأصطدم براسك منكفئا على رسغى واسنانك هى التى تواصل النهش فى لحمى . لم أحتمـل أن تكونى انت فصرخت بألم لا يطاق ولم يخرج الصوت . سقطت أرتعد فى البرودة والظلمة حتى صحوت بجسد يغمره العرق وبعينين مليئتين بالدموع وحلق شـديد الجفـاف أفكر فىالتى تركتنىيدحرجنى الليل للنهار والنهار لليل وحيداً كفاكهة مرة .

سحبت يدى برعب ونهضت أرتجف بعيدا عن حـد النصل الذى ظل طوال الليالى الماضية ينفجر عليه الوهج ويتلوى كأفعى تتسلل الى واغلقت البـاب خلفى وتلمست طريقى فى الظلمة التى بدأت تخلى الطريق والفضاء لزرقة تضىء واجهات البيوت والارض الصاعدة بى حتى البحر :

اهدأ . أنت ترتعد فى هذا الصباح البارد ولما تدخل المعركة بعد . كيف ستدخلها اذا دون ان تحكم السيطرة على أطرافك . أنت تفكر فيها طويلا ، تراهن بحياتك على حبها لك ، وتخشى حتى الموت أن نفقدها ويرهقتك هذا الانتظار على أبوابها التي لا يمكنك أن نتيقن اذا ما كانت مفتوحة على اتساعها أم مغلقة باحكام ولن يتأتى لك ذلك قبل أن ترفع ذراعك وصوتك ونبدأ بكل قوتك الطرق « من ماء البحر ، هل ستخرجين جارية الى لترتمى الى جانبى ، أنا المنهك وأوشكت أن تغتاله الطرق . فنستلقى فى ظل الاشجار التى سيجتاح البرتقال سماءها الخضراء ، والشمس التى ستدفىء جسدينا العاريين المبتلين سيلتمع ذهب استدارتها كنصف برتقالة ناضجة مقسومة بيننا وتصب جمالها فى عينيك التى مازالت تثقل أهدابها القطرات ثم نجرى نازلين الماء لنغير طعم ريقنا بعد الجرعات المالحة عندما سنتعانق فى صمت تحت سقف الماء العالى المضاء مبهورين بالشمس التي ستنزل الينا عارية فتفتح خياشيمها وتمتد لها زعانف ، وفوق رأسينا تسبح ! » واذ يتبدد الطرق يحلق الصمت من جديد فتختنق بالبكاء وتستيقظ رغباتك كلها مفجرة الصخب فى الدماء التى اجتاحت كل شرايينك فاتحة فى أنحائك جبهات متعددة تختلط الصيحات فيها بالطلقات بالهتافات بالصرخات والفرار ثم معاودة الهجوم الاخير وأنت لا تتمالك نفسك : أصدى ذلك أم الصوت من جديد ؟ »

اتئد وضم جفنيك ، كبوابتين عليك أن تغلقهما فى مواجهة جيوش العدو لتعيد ترتيب قواتك ولا تفقد صوابك لو شعرت بالخوف ، أنت تدرك ما عليك أن تتحمله حتى تنتصر وما عليك أن تخسره حتى لا تخسر الحرب ذاتها ، فما من حرب يمكن كسبها دون أن تخاض حتى نهايتها ودون

أن تكون مستعدا لعديد من الخسائر ، لكن عليك ألا تحارب وانت مثقل بصور الهزيمة . يجب أن تتجدد دائما رؤاك عن انتصارك كحق وحيد . تلك الرؤى ستمنحك القدرة على أن نرى أدق التفاصيل والسبل لكى تطوق العدو من كل جانب. وستفتح أيها العاشق عينيك على اتساعهما مبهورا بما يتحقق أخيرا : العدو يتجمع ويواجهك فى الناحية الاخرى ، مسلحا بكامل أسلحته ، مقفلا على نفسه الابواب والقلاع التى ورثها عن كل أعدائك ، محتميا بأسواره وبأقوى سلاح يقيه منك : عداؤه مستعرضا كل الحيل التى لا يكف عن اتخاذها ليعبر لك عن لا مبالاته بك ، كما لو انك رداءا باليا مزقه وأبعده عن جسده . لكن أى حمى تلك التى ستجتاحك وتتوجك بورودها عندما ستنقض عليه كي تجرده من أرضه ومن سمائه ، مجتاحا كعاصفة كل أبوابه واستحكاماته رافعا فوق رأسه العارى المنكس وشاحك المضمخ بعطر دمائك اذ جاءك مهزوما وعاريا وجميلا كأجمل ما فى هذا العالم : مجردا من عدائه ورافعا ذراعيه الى أعلى براحتين مفتوحتين وعليك أن تناله كفاكهة نضجت وتوشك أن تسقط وعليك وهى بين الغصن والارض أن تتلقفها .

قم أيها العاشق الذى اكتملت جراته واحط صوتك براحتيك اللتين زغرد فيهما الدم عندما نالتا الثمرة ، وازرق فيهما عندما فقدتا كل شيء . قم ودفئهما بصوتك وانطلق بجوادك ليعزف بأربعة حوافر ايقاعات جديدة تحتدم على الجلد المشدود للطرقات مناديا فيها أن تترك كل ما وراءها وأن تجتاز بسرعة دروبها الخانقة وتشرع فى مناداة بعضها والخروج للساحات : الى يا قواد جيشى يا من لم تدخلوا الحرب من ازمنة طويلة ، فما من سموات لنا دون أن نضرب فى الهواء بأجنحة ممتدة على آخرها ، افتحوا أبواب الاسطبلات

المقفلة على الجياد ، وليجرد الفرسان سيوفهم التى علاها الصدأ ، وليحكم المشاة ربط أحذيتهم البالية ولنسكت جوعنا ببدء الصيام الكبير ، وعطشنا بملء زمزمياتنا بماء البحر، ولتسلك دماؤنا طرقا مغايرة لتلك التى قبعت فيها بتراخى الحيوانات المجترة ولتتعلم القفز عاليا كامواج بحر تقصم لجام شواطئها وتندفع مجتاحة شوارع المدن المفتوحة توا ، كنيران ترفع أمجادها عاليا بحرق كل ما يقاومها ، كالربيع يعرف جيدا تحت غطاء الوجه الشاحب للارض طريقه ، نافضا شحوب الموت بخطى الحياة التى سيزين بها وجه الارض ويقيم كمحب من أطلال ما احبه اقاليم ومدن جديدة ببوابات ، وساحات ، ونوافذ ، وقباب ، وابراج عالية لاعتلائها ورؤية العالم المأخوذ بما نفعله نحن العاشقون الذين التهبت حلوقهم وحناجرهم بكل هذا العطش ، اذ نغمد خناجرنا وننفك من أحزمتنا كؤوسا حجرية ونرفعها عاليا ونحن نصلى : « أمنا التى فى الارض » ولم يزل عالقا بها ملح ماء البحر تحت سماء آخر الليل التى ستتفتح وتتحول حول الكؤوس الحجرية الى سماء تتورد ، فسماء ذهبية ، فسماء مشتعلة وتنفذ من خلال حجر الكؤوس ، بجمال لم يكن من قبل ، سبع سماوات كاملة !

الاسكندرية (مارس — يوليو ١٩٧٩)

قراءة فى ((عطشى لماء البحر))

ابراهيم فتحى

فى الكتابات النقدية الكثيرة عن القصة القصيرة المصرية المعاصرة لا نرى النصوص الفنية تشبه انفسها . فالصور النقدية مغايرة لملامح تلك النصوص . وكان التشابهالسطحى بين القصص المعاصرة فى مصر وبين تجارب عالمية ذائعة الصيت منزلقا سهلا الى عقد المقارنات وانتحال درجات من القرابة . ومن الذى لا يستطيع أن يقدم جدولا « للاساليب الحديثة » ، « طليعى » مقابل أو فى تجاور مع «التقليدى» ، للحيل السردية ، وتوصيفات الصنعة ؟

ولكن هل تستطيع حقيبة العدد والادوات ، حقيبة المونولوج الداخلى وتيار الشعور ، والمجاز والفانتازيا والاليجورى وايقاع الجملة وايراد حروف العطف واسماء الوصل أو حذفها ثم التغريب والتشيىء والعبث الى آخر محتويات تلك الحقيبة أن تكون جوهر ادبية الادب ونوعيته المستقلة ؟ . وهل من المستطاع حينما نلصق بتلك العدد والادوات بطاقات سجلنا عليها اسماء مواضيع وموضوعات مثل : القطارات والبيوت أو عالم الطفولة أو العقل الباطن أو الاغتراب والاحباط والضياع ، ثم نوزعها مجتمعة أو منفردة على كتاب القصة القصيرة ان نبرز العوالم القصصية القائمة بذواتها ، وان نضع اصابعنا علىالحساسية الفنية الجديدة التى يزعمون انها مستقلة عن دراما الانسان فى التاريخ ؟

لقد كان نصيب محمد ابراهيم مبروك من هذا اللبس نصيبا موفورا . نراه على سبيل المثال عند الناقدة السوفيتية « فاليريا كيربيتشنكو » فى كتاب « بحوث سوفيتية فى الادب العربى » الصادر عن دار التقدم بموسكو عام ١٩٧٨ . انها تقول : « طريقة مبروك فى الكتابة تشبه كثيرا ما يسميه السرياليون » بالكتابة العفوية « التى هى عبارة عن »سيل من اللاشعور » ، ورؤى عشوائية غريبة يلدها ذهن هائج محموم . فالكاتب متجه الى دخيلة نفسه لا يعبأ اطلاقا بما حوله . وان الصور غير المعتادة واللوحات الخيالية المرعبة تتزاحم فى ذهنه فيلتقطها على الورق بسيلعشوائى متواصل .

وتتشابك الالام والرعب والالم النفسانى الشديد والقنوط الذى لا نهاية له ولا فكاك منه الا بالموت (ص ٣٤٩ — ٣٥٠) .

والناقدة السوفيتية هنا متضامنة مع الكاتب المصرى شفيق مقار الذى كتب مقالة تحليلية عن مبروك فى مجلة « الطليعة القاهرية (أبريل ١٩٧١) وعنوان مقاله : » القصة بين الشعور واللاشعور « ، وهو يذهب الى أن أقاصيص مبروك فى نزعتها العصرية الخالصة من حيث التعبير تعد نموذجا لروح العصر ، وهو يعجب بها كلحن نقف عنده ولا نسأل . ما المقصود .

ولكن الوقوف عند السطح الظاهرى للنص الادبى ، ثم وصفه وتصنيفه تحت بطاقات حقيبة العدد والادوات لا ينجو من النزعة التلفيقية . فحسبما تصطدم الصيغ التبسيطية الجاهزة بالنص وتلقى عوائق واضحة تلجأ الى

جمل اعتراضية لا سبيل الى التوفيق بينها وبين الفكرة الرئيسية ، فالناقدة السوفيتية تقول « وبالرغم من الشبه الكبير بالنثر السريالى لا يجوز نعت اقاصيص محمد ابراهيم مبروك بالسريالية الصرف ، ففى كل منها رغم فوضى الصور ظاهريا أساس منطقى موحد ينظم النص ويضفى عليه مغزى معينا وصيغة ناجزة ، وينعت شفيق مقار طريقة مبروك الفنية بأنها ، سريالية مع وقف التنفيذ » (ص ٣٥٢) .

فالنقد يصدر الحكم بالسريالية باعتبارها اساسا ، ويسجن النص فيها ، وهى أساس للكتابة التلقائية يقوم على الاعتقاد بأن حقيقة جديدة وفنا جديدا يولدان من اللاوعى .

ومما هو لا عقلى ، من الاحلام ومناطق الذهن التى لا يتحكم فيها الانسان . وهذا الفن فى تداعيه الطليق غائص فى الحدس اللاعقلى أو فيما قبل العقلى ، يقوم بتطوير تلقائى آلى للافكار والصور وبتوليدها وتكاثرها دون رقابة واعية . وبعد ذلك لا يجد الناقد مانعا من أن يقول قولا عكسيا على طول الخط ، فليس فوضى الصور الا امرا ظاهريا أما الاساس فمنطقى موحد !! . ونحن الان نعرف أن هناك اجابة على السؤال عن المقصود وعن المعنى المعين والصيغة الناجزة . وبطبيعة الحال ليست هناك «سريالية» صرفة أو خالصة عند السرياليين أنفسهم ، وقد تلتقى فى العمل الادبى الواحد اتجاهات متباينة وتتعدد دلالاته ، ولكن هذا الالتقاء وهذا التعدد يصبح أساسا جديدا للوحدة العضوية للعمل الادبى ، وهى وحدة تنطوى على التناقض الحى . فليست المسألة الرئيسية ادراج العمل تحت مقولة وصفية سطحية جاهزة . وانزلاقا على هذا التشخيص

السريع المضطرب تصل الناقدة السوفيتية مع مقار الى ان السمة الرئيسية المميزة لمبروك هى « التركيز الكلى على» أناه « الداخلى وقطع جميع الصلات بالواقع الذى لا يسير فيه غير الريب والارتياب. بيد أن الكاتب عندما يعزل نفسه عن العالم الخارجى يحرم نفسه من المصدر الذى يغذى قواه الروحيه والابداعية فيصل بالطبع الى الفراغ ويستنفد محتواه الداخلى » (ص ٣٥٢) .

« الانا » فى الثياب التنكرية :

حقا ان علاقة « الذات الفردية » بالعالم الخارجى واللحظة التاريخية — والتعارض بين المسار الفردى المعاش للزمن والزمن الموضوعى التاريخى — مسألة محورية فى الادب المعاصر . وهذه العلاقة هى مكمن الاعتام والغموض فى قصص مبروك . ومنطلق محاولة النقد اضاءتها وايضاحها . وقد رأينا محاولة الناقدة السوفيتية القيام بذلك عن طريق رد المسألة على نحو مباشر واختزالها الى ما يبدو أنه شفافية الفكر العقلى ووضوحه ، أى الى الذات والموضوع فى ثنائيتهما المعرفية .

ولكن الذات الشعرية فى قصص مبروك — اى وجهة النظر التى تقوم بالتشكيل والتنظيم — تقف عند نقطة البدء فى نظرية المعرفة ، عند مسألة العلاقة بين ذاتية الوعى وموضوعية العالم . فهى لا تتعلق بفرد باعتباره مجرد كائن منفصل ، أو دائرة مغلقة معزولة ، بل تستكشف فيه دوافع تلقائية نحو الازدهار والتكامل المتسق والمشاركة وتفتح الامكانات الحقة ، وان تكن محاطة بدواعى الاغتراب والانسحاق والتشويه . وبين الوعى الفردى وهذا « العالم

الموضوعى » ، هناك « حلقة وسيطة » هى التى تحدد بنية الوعى الفردى الذهنية والانفعالية . انها أشكال العلاقات الانسانية (سيطرة واذعان ، واشكال الحياة اليومية واشكال اللغة . ولكن تلك الاشكال التى نصوغ الذات والوعى بالذات قد فقد كل منها فى تلك اللحظة التاريخية تماسكه ووحدته ، وأصبح تطورها متفاوتا لا استواء فيه . (ونعنى باللحظة التاريخية ملتقى تدهور العلاقات التقليدية،وتعثر النمو الراسمالى،وانحال راسمالية الدولة فى معركة الاستقلال القومى شعارات الاشتراكية وقمع القوى الشعبية ومخاطر التبعية المحدقة) .

لذلك نجد عند مبروك وغيره من كتاب القصة فى مصر — وربما فى كثير من بلدان العالم الثالث — أن البنية السيكولوجية لوجود الوعى فى العالم ولعلاقاته بالاخرين ؛ تشكلها علاقات بين عناصر متباينة من الاغتراب التاريخى. سواء الاغتراب الغيبى بلغته المتميزة ؛ اليتم والضياع بعد موت الاب جوبيتر أو الاغتراب الرأسمالى بلغته المتميزة لغة الامتلاك والتشيؤ . فالطابع السيكولوجى فى خطوطه العامة هو الطابع التاريخى متنكرا . وفى قصص مبروك نجد أن الشروط الداخلية الباطنة للتجربة ، لا وقعها الخاص أو كيفها الفردى بطبيعة الحال ، لها بنية الاغتراب نفسها ، بنية علاقات سيطرة واذعان ، وهى بنية مركبة تضم علاقات التبعية الشخصية الخانقة العتيقة وصنمية السلع والنقود فى آن معا .

اللحظة التاريخية ولحظة التحقق :

ونرى الذات الفردية فى قصص مبروك شخصية واحدة،

هى شخصية الشاعر العاشق الطفل رغم أعوامه الثلاثين.
وهو ما يزال طفلها لانه عاش تاريخه كـلـه فى البحث .
فالاطفال (ولا يتعلق ذلك بالعمر) وحدهم هم الذين يعانون
فى البحث . اما « الكبار » فلا يبحثون عن شىء . لقد وجدوا
« حقيقتهم » وواصلوا الموت فى حياة هى تعاقب حالات
من الاستسلام والخضوع لمتطلبات الانتماء الى طبقات متآكلة
صدئة ، واصبحت « ذاتيتهم » تكيفا انقياديا مع متطلبـات
النجاح والتسلق التى تبارك « الواقع الموضوعى » للقهـر
الطبقى والسياسى . والفرد فى عالم « الـكبار » يجد المأوى
فى عالم من المؤثرات الاصطناعية ، وتعى التجربة الفردية
نفسها وتكتسب طابعها بلغة الفكر السائد ، وتتزايد اشباعات
تلك التجربة فقرا ، وتتضاءل نماذجها المتخيلة عن التحقق
والسعادة ، وهى نماذج يتم انتاجها بالجملة لصور الرضـا
والخير ، وانماط وقوالب السـلوك العملى والاستجابات
السيكولوجية معا . ووظيفتها عقد مصالحة بين الحيـاة
الداخلية للافراد وأسس الاستغلال والتطفل ، وخلق لغـة
للشعور والوجدان قائمة على اتساق مصالح العمل والملكية
الاستغلالية . وتنكمش بذلك الذات الفردية الى « دور »
مفروض وينقضى العمر فى ارتداء ملابس « الدور » وتمثيله
بل وحبه أحيانا . الكبار يرهنون الروح والشخصية مقابل
الرموز الاستهلاكية ورموز المكانة ، مقابل اشياء باهظـة
الثمن على أحدث الصيحات لا تطيقها الا الصفوة . وأصبح
« المثل الاعلى » مستبدلا فى « ممتعة » بالتقسيط عـربدة
الشراء ، وحساب فواتير الاستهلاك والتوقعات التافهـة
والاهداف الرخيصة مهما يكن سعرها عاليا . أين ذلك النثر
الرمادى من شعر الامال المجنحة ، شعر التطور المتسـق
متعدد الجوانب للشخصية فى فورة معركة متصـلة لاقامة
أسس جديدة للعلاقة بين الانسان والانسان ، ولنمط التفكير

وحالات الشعور ونماذج الشخصية ؟ . الشاعر العاشق الطفل يرفض السقوط ، ويصرخ رافضا ان تكون ذاته وشخصيته نواة من علاقات اجتماعية تقتل الانسان فى الانسان ، وتجعله دورا اصطناعيا مفروضا ، منفصلا عن منابع الفاعلية الحقة فى تلقائية ذاتية ، مغتربا عن انفعالاته الحميمة ، مبعدا عن بواعثه وقدراته على اتخاذ مواقف شخصية خاصة ، غارقا فى استجابة سلبية تصدر عن كائن بلا ملامح ، فقد الفردية الغنية .

ان انعزال « الفرد » فى قصص مبروك شكل من أشكال الانقسام الاجتماعى . وليس اختيارا فنيا أو موقفا ايديولوجيا بل ان الحياة النفسية للشاعر العاشق الطفل فى قصصه بعيدة عن أن تكون مساحة داخلية غائمة الحدود ، وعن أن تكون ذائبة فى دوامات من فتات التجارب المهشمة . ان هذه الحياة النفسية ليست عنده سيولة بلا شكل ، فهى فى مدها وجذرها ذات ايقاع منتظم ، وتفيض وتنحسر حول نواة أو مركز شخصى وفى بنية مترابطة تحكم التداعيات فى نسق واتجاه . وهذا المنطق الداخلى ، هذا الايقاع الحى للزمن الذاتى يقوم على علاقة بين توترين ، على علاقة ثنائية ، بين ذكريات براءة وصحو فى حضن الشروق وتوقعات عطش لاشرعة مملوءة بأفق العالم ، ورغبة فى أن يكون الفرد هو عين ما يتوهج فى الشمس ويصفو فى الزرقة ويصلصل فى جريان الانهار ويخفق فى سماء الاجنحة ، معانقا صدور الامنيات الحية وبين واقع انطفاء وهجران وموت . ولكن أين نجد البراءة والصفاء وألق العثور ؟ وأين نجد الخنق والصلب وظلمة اللحد ؟ انجدها فى اللا وعى الهائج المحموم ورؤاه العشوائية ؟ ان العلاقة الثنائية لبنية الشعور ، أى مشاعر التعاطف والحب والحنان فى تضادها مع

الاحساس بالتنافر والبغضاء والقسوة تعبير يجسد انقسام الواقع الاجتماعى الى « نحن » و « هم » ، الى الفقــراء ممثلى العمل والحب والازدهار والى مضطهديهم ممثلى التطفل والكراهية والموت .

وندع كلمات « مسيح المراسيم المحالة » تبدد الغموض عن تلك الثنائية ، ثنائية التحقق والصلب : « لم نكن (فى الطفولة) نحس أن الارض غريبة تحت بطون أقدامنا . كنت أبحث عن واحدة من البنات ذوات الضفائر ، واحدة بالذات منهن . أبحث عنها كلما سقط الليل وأجدها حينما أطل فى عينيها . كنت قد احسست بالليل يأتى ففررت هاربا من فخذى امى لابنى لى معك بيتا . نصنع من التراب جــدرانا بارزة على الارض المستوية تنقطع عند جزء منها فيــكون باب . ثم نكمل مربعا من الجدران وبذلك نكون قد صنعنا بيتا لنا بجوار النهر . اتركك تكنسينه وتفرشين حصــيرا وهميا ، وتعلقين على الجدران فى الليل مصباحا وهميــا . والغريب يا عذراء أنه كان يضىء ، والا فــكيف كنت أرى ملامحك الصغيرة بكل دقتها ، بل حتى عينيك وحنينهما الازرق تحت خصل الذهب المهملة على تفاحتيك ... وأدعك لبرهة ، اذهب خلال النهار الى الحقل أحرثه وابذر البذور وأغطيها ثم انتظر حتى تبيت الشمس لاعود اليك ، وتهرعين صـــوب الباب لتفتحينه بأكمله راغبة فى دخولى بلهفة أم ... وعلى كسر الفخار نقتات العشاء ونشبع . وتظلم الغرفة .. ويفتح كل منا عينيه فى عينى الاخر ... لكنهم داهمونى بالملابس الســـوداء مالئين الشارع الذى يمر فى بطن الخضرة منتهيا عند زرقة السماء الكالحة حيث كانت المقابر ترفع رؤوسها المدببة الجهمة ...

(هذا الطفل العاشق الشاعر) صلبوه . ولم يكن له اب . ولما لم يجد أبا أحب بجنون أن يكون له ابن ليرى أباه فى عينيه . ولكن ذلك المصلوب الذى لم يلد لانهم عاجلوه بالصلب عشق يوما ولذا صلبوه . (ومن هم الذين صلبوه؟) الذين يحملون قلوب اليهود (يحملون دولارا بين ضلوعهم) كرهوا أن تعشقه معشوقته . وعندما كانوا يرفلون فى ثيابهم المغسولة (ثياب العمل عليها الطين والعرق) امامها . ويسمعونها صوت الذهب فى أكياسهم كانت تتأفف من النظر نحوهم ، كانوا يسلكون دوما سلوك الافاعى الغريبة » .

ان العالم المغترب الذى لا يعدو كومة من المحطمين فى الطرقات ، وقد يئس الشاعر من امكان انتشالهم ،

وذلك أشد ما كان يصيبه بالاشمئزاز ، « كان من الممكن أن ينقلب راسا على عقب لمجرد أن يتعرف الانسان على الانسان » (قصة مسيح المراسيم الحالة) . والظما الى المشاركة والالتقاء والمصافحة والعناق هو نفس ظمأ الذات الى أن تجد نفسها . ومع الحبيبة « تلتصق ملامح كلمنا وتغوص بملامح الاخر ونتبادل التنفس ، وندرك بتغير ايقاع النبض أن كلا منا بدأ ينساب دافعا كيانه نحو ذاته فى الاخر » وكذلك « يدك تختنق وحدها . والطوفان يعلو ويتسارع بكل الق الشموس التى لم تنر العالم من قبل . والبسمة تنبثق وتدب بايقاع هائل الفوضى والتناسق . والموجات الفرحة تعزف مستحيلا يوجد » ان الحب يتفجر بمعجزة الخلق . الاضواء تنسكب فى العناق . وترتوى البشرة ونرى ما تحت غبار الاشياء . ويغوص الشاعر فى أمواه الدهشة ويبدأ طعم العالم فى التغير . المرارة تنحسر عن جدران الحلق . وفى لحظة العثور على طعمك الحلو

نفجرت الحلاوة فى جسدى كله . القوة تتفجر فى ساعدى واتحسس جسمى الجديد لاتعرف عليه ... واكتشفت ان الجحور الجبلية التى كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ . وأن الشوارع ليست سراديب نمل وأن الاشياء (يعنى الكائنات البشرية) ذوات الرأس الواحد والاربعة أطراف والتى ترتدى مزقا مضحكة من النسيج ... (والتى كانت عيناتها الفاخرة ملفوفة باحكام فى المعاطف الجلدية الواقية من المطر والجوارب الصوفية الملونة والاحذية ذات الكعوب المدببة على العزف ... والانثى من هذه الاشياء كانت معطفا جلديا ، عريا فارغا مغطى باللفافات وقناع الالوان وطلاء العينين) .

لم تعد أشياء بل انبثقت منها فجأة عيون فأصبحت ترى . وعندما كنت اتأمل اى واحد منهم بدهشة كان هو الاخر يتأمل عينى ، ويبادلنى نفس التصرف .. واصبحت اتأمل بحب غريب ايقاع الخطوات التى تنظر الى الامام ، والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير ... وقد كان يخيل الى قبل ذلك أننا لا نسير أبدا ، بل نحن نسقط أقدامنا فى الطريق وبعد ذلك يتولى هو كل شىء ، تماما كالذى يسقط يديه فى قبضتى شرطى ليقتاده الى السجن .

ومن الواضح أننا أسرفنا فى ابراز توهج لحظة التحقق الوهمية ونضارتها ، فهى لا تحتل الا مساحة ضئيلة بالقياس الى امتداد فسيح للانطفاء والتداعى والسقوط والعبث فى قصص مبروك . ولكن تلك اللحظة الخيالية المفترضة ، لحظة الاكتمال والامتلاء التى لا تحتل موقعا فعليا فى التسلسل التاريخى ولا مكان لها على الارض ، هى المعيار الفكرى والنفسى واللغوى الذى يحكم بها السرد الشعرى

على اللحظات الواقعية الاخرى ويقيسها بها . انها ليست مجرد امكان للمصالحة بين الوجود الشخصى والعالم بل اقتراح بنموذج جديد لوجود الفرد ومنطق مغاير للعالم .

نمط الفردية التقليدية :

وهذا النموذج الجديد لوجود الفرد ليس اختلاقا تعسفيا لذهن حالم كما انه ليس مقصورا على قصص مبروك بل هو نغمة سائدة فى الادب القصصى المصرى الحديث . انه مستلهم من آفاق كانت تتفتح أمام الحركة الوطنية المصرية فى مرحلة انتقالية طويلة المدى .

ان الفردية البورجوازية فى مصر نشأت مع ارتباط المجتمع التقليدى المتفسخ بالسوق العالمية الاستعمارية ،ومع تغلغل علاقات التبادل تدريجيا فى بطء قاتل داخل الاقتصاد الطبيعى والعلاقات العضوية لمجتمعنا القديم . لقد كانت الفردية البورجوازية ترنو الى حرية انسانية تحطم اغلال التخلف والتبعية الشخصية لذوى السلطان الاقتصادى والتبعية السياسية للاستعمار . وتلحق بركب « البلاد المتمدينة » على قدم المساواة . ونلمس فى قصة مبروك «نزف صوتصمت نصفطائر» أصداء ذلكالشاعر القادم من مصر الى لندن عاصمة الاستعمار البريطانى ، يحمل داخله برعم الوعى الذاتى بالفردية ، برعم التحرر الشخصى من التبعية للسلطات الموروثة والقدر الاعمى والاوثان الغاشمة، برعم اطلاق سراح الطاقات الفردية فى العمل ومعنى الحياة والحب والفكر من أغلال التبعية الشخصية للملاك والطوائف والجماعات الضيقة ، والسلم الطبقى الابدى بقداسته الوثنية والحكم المطلق ومتون التعمية . ويحلم الشاعر

الذى يعى ذاته بلغة تستعير جناحها الاخر من غنائية الفردية البورجوازية فى الغرب ابان صعودها ـ قبل أن تتحول الحرية الانسانية المجردة بتفاؤلها وبطولياتها الى دفاع أيديولوجى عن الامتياز الطبقى ـ بتحقيق نموذج للتحقق والسعادة . وفى قلب القصة القصيرة والرواية المصريه نجد دائما هذا المطمح الى تلك الذات الفردية الغنية ، والى أسلوب حياتها الذى تحرر من العوائق القديمة . فتلك الذات تتوق الى الاسهام فى صنع أسلوب جديد للحياة لم يكتسب صلابة وتحجرا . وكان ثراء تلك الذات يقاس بلغة السعادة الداخلية والتوافق العام والانجاز الخارجى . انه نموذج الشاعر الفنان وان لم يكن يحمل انتاجه الى السوق . أو توأمه رجل الفكر أو العلم أو القانون لا من حيث التخصص المهنى الضيق والنجاح التجارى بل من حيث احتضانه لقضية عامة . وهو على الاغلب مشارك فى الحركة الوطنية أو روافدها وفى صميم حياته قصة حب لا يقرها المجتمع التقليدى . وترتبط بمنطق حياته وقد تكون رمزا لهذا المنطق . ومن الواضح أن « أوروبا » كانت عاملا مشتركا على نحو مباشر أو غير مباشر فى أدبنا المصرى الحديث (الايام ـ عصفور من الشرق ـ قنديل أم هاشم ـ وسيل من القصص والروايات عن خريجى وخريجات المدارس والجامعات الاوروبية) لقد كان « العمل » فى عدد كبير من القصص والروايات المصرية أكبر من خانة المهنة ، فالفردية كانت تتوق الى فاعلية تستغرق فيها بكليتها كانسان متكامل ، الى نشاط يشترك فيه الجسد والعقل والانفعال على نحو متسق .

ولكن تلك الذات الفردية لم تكن فى علاقة تناحرية مع أنماط الفردية التقليدية رغم الاختلاف والتضاد نتيجة

للطابع التاريخي الذى تميز به نمو العلاقات الراسمالية فى مصر .

لقد كان الفرد فى النمط التقليدى ، من زاوية تطوره الذاتى محصورا فى نسق محدد من الروابط الاجتماعية ، عائلى طائفى قروى (أو اقليمى) ، ويتمشى ذلك مع وسائل بدائية وانتاجية ضئيلة ، ولم تكن امامه طريقة للوجود والتكاثر الا بأن ينصهر انصهارا كاملا فى جماعة ضيقة محددة ، وفى شروط عمله فى الارض بالنسبة للكثرة ومع الارض المحراث والفأس . لقد كانت الارض هى الشرط المسبق وموضوع العمل ووسيلته وهو عمل غائص مباشرة فى الطبيعة وزمانه هو ايقاع الفصول الدائرى ، وأدواته امتدادات مباشرة لاعضاء الانساء وحركاته الاولية البسيطة ، وتبدو له هذه الادوات كائنات حية ، وكل تلك الشروط الانتاجية « الطبيعية » لا يمتلكها الفرد أو يستحوذ عليها بالعمل الا من خلال عضويته فى جماعة « طبيعية » محددة هو جزء منها لا يتجزأ فى الوعى والسلوك يستبطن داخله عراف واجباتها ومحرماتها الكلية القسرية وهو لا ينتسب الى المجتمع الكبير مباشرة بل عبر جماعته ، فى روابط شخصية أهمها روابط « الدم » الاسرية . ومن المؤكد أن تلك الجماعة الطبيعة المتآلفة كانت قناعا لقهر طبقى وحتى لا يعرف تآلفا ولا انسجاما ، وقد أخذت تلك الجماعة المتآلفة الطبيعة كلها داخلها ، وحاولت استئناسها لتصبح لها شكل حاجات الجماعة واشباعها ولكن الطبيعة كثيرا ما أخذت شكل احباط تلك الحاجات وشكل التهديد باجتياح الجماعة نفسها ، فمما أضعف قدرتها فى السيطرة على الطبيعة ، وكان هنا موقع الاغتراب فى المجتمع التقليدى . الفرد يقذف بطاقاته وانفعالاته وقدراته الانسانية خارجه — ويعتبرها مجسدة

من عناصر متناثرة من فردية الجماعة المتآلفة وعناصر متناثرة فى « قوى » الطبيعة المؤلهة . وتصبح الطبيعة تعبيرا عن ـان متعالية مفارقة للفردى والجزئى والحسى (وليست أوصافها فى الادب فى رواية « زينب » مثلا أو فى « دعاء الكروان » تعبيرا عن خبرة مباشرة بواقع محدد) . فالذات الفردية فى نمطها التقليدى ليست ذرة مستقلة منعزلة وكانت العلاقات بين تلك الذرات تتم داخل جماعة محلية شخصية الطابع لا مع تجريد المجتمع الكبير ، ولم تكن الروابط الاجتماعية بين الافراد قد تحولت الى علاقات بين سلع واشياء ، ولم يكن التقسيم الهائل للعمل والتبادل التجارى قد جعل الشكل السلعى يبتلع الحياة ، ويجعل الطيبات والخيرات مقيسة بأرقام سعرها بدلا من أن تشبع حاجات الانسان المباشرة (ويجب أن نتذكر حتى لا نستغرق فى حنين سوداوى الى الماضى أن الفردية البورجوازية اسهام حقيقى باق خلقت ذاتا جديدة للفاعلية ونمت حاجات وطاقاتجديدة على الرغم من تناقضات تطورها وتراجيديته). أن الفردية التقليدية لم تكن تعى الفرد باعتباره كيانا مستقلا بل مقتسما مع عشيرته (رغم التمايزات) لعالم عضوى من الانفعال المشترك له بنية قيم متوارثة مقننة ، وهى قيم كلية عامة لواقع نهائى ليس التغير فيه الا معاودة وقوع فىدورات متعاقبة ، كتعاقب الفصول . وهذا الانفعال المشترك ، لانه جماعى مشترك يحياه كل فرد وكأن له وجودا خارجيا عنه مماثلا لوجود الطبيعة ، فبنية الانفعالات (استمرارها الايقاعى أو علاقاتها المتقابلة) تسقط على الطبيعة فى نزعة احيائية . وتبدو الحياة الطبيعية فى شروقها وغروبها وفيضاناتها وانحساراتها ومدها وجزرها وعواصفها رعودها) وهداتها وخصبها وجدبها تعبيرا عن الحياة الانفعالية الجماعية التى يقتسمها الفرد مع الجماعة . وكانت

التراكيب والاشكال الفنيــة التقليدية (فى الادب القصصى الشعبى) تقوم على استعارة كبرى لتصور طبيعى حيوى عن العالم . فالعالم مشكل من قوى حية تكاد أن تشــبه الانسان ، لكل منها رغبات ودوافع متصارعة ، وتلك القوى موجهة بغائية تفرض اتساقا وانسجاما . ومصــاغة على غرار الفاعليات والمشاعر والارادات الذاتية المشــتركة .
ونجد لحظة التحقق الطوبائية فى قصص مبروك متخيلة فى نسيج لفظى صوره مستمدة لا من دوافع الانسان كما تتدفق فى الخبرة البيولوجية أو الفردية بل فى التجربة الانفعالية المشتركة المتلاحمة مع قوى الطبيعة . فالضفائر عنــد المحبــوبة ثلاثة أنهار طفلة نزقة لا تختلط ولا تنتهى الا عند أسفل الظهر . وانهارك تصطخب لحظة أن رأتنى . شفتاك منفرجتان تسقياننى الاضواء ، والســحابات فى نافذتى الشرقية تخضر حول عالم جديد يتبدى فى الشروق وابتسامتك تشرق دوما أمام دهشتى ... والفرح يظل يهطل فى موجات لا تنقطع ... تمدين لى جسرك المتوهج عبر الامواج الليلية ممتدا من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجائفة ، وعظام الهياكل العارية على هياكل السمك الميت . ينقلنى الجسر عبر الليل كله الى استدارتى عينيك وهى مفتوحة على عالم لم يعرف ســوى الصحو فى حضن الشروق .

المصــالحة :

ان الادب القصصى فى مصر ظل من حيث اتجاهــه الرئيسى حتى الستينات مهتما اهتماما حاسما ــ ليس هــو الوحيدة بطبيعة الحال بمشكلة العــلاقة المتداخلة بين نمطين من الفردية . فالاتجاه الذى ميز القصة القصيرة والرواية

عن أشكال السرد التقليدية هو اتجاه الذات الفردية البورجوازية . فالسرد الحديث يقوم فى بدايته على افتراض ان نفس الفرد وشخصيته وروحه ، اى حياته الداخلية . قطب مقابل للعالم الخارجى ، فثمة مركز سيكولوجى فردى مقابل العالم . ومن المعروف أن الاحتفاء بالعمق الانفعالى والنفاذ الى بواطن الذات الفردية سمة مميزة للايديولوجية الليبرالية فالوعى والفكر والانفعال ، أى الحياة الداخلية ، هى مقومات الذات . وهى ملاذ الحرية الباطنة ، الحرية الجوهرية للانسان فى عالم المنافسة والربح الذى نشأ فى أحضان عالم الاوضاع الموروثة فالقصة أصبحت تدور على شواغل القلب البسيطة لا على افعال أبطال ومردة وفرسان وأمراء ، وتعنى بسمات الفرد وخصوصيته بدلا من النماذج الجماعية التاريخية ، وتتركز فى تدفق الانفعالات الشخصية. كما أصبح معيار الحقيقة الجمالية التجربة الفردية بدلا من القيم المتوارثة المقننة . فالمعيار الجمالى البورجوازى لايعتبر التطابق مع الممارسة التقليدية هو اكبر اختبار للحقيقة بل ان ذلك الاختبار متحقق فى الطابع المباشر العميق والصدق الذاتى (أو مع الذات كما يجرى الكليشيه النقدى فى مصر) والحساسية والعمق الباطن . ويتمثل ذلك فى نزعة اعترافات غنائية وميل الى التعبير السيكولوجى المباشر وكأن الانفعال يولد وفى فمه وسائل التعبير عنه . والشخصية هنا وجود فردى واقعى ، وتجربة متدفقة تقوم بأفعال جزئية « حرة » داخل نطاق زمنى معين ، زمن الساعة وجدول القطارات وصفارة بدء العمل وانتهائه وهو زمن يسير فى خط مستقيم ، وليس زمن الفصول الدائرى الابدى . الزمن الواحد ذى الطبيعة الواحدة فى الزراعة والحصاد والقيام بأمور البيت أو الشئون الاجتماعية فالعمل لم يكن ينقسم الى وقت عمل ووقت فراغ . وبالاضافة الى ذلك فالمقياس الزمنى المحدد

قوة اساسية ، يقيس زمن العمل ويحدد الاجر ويقيس كل انجاز وكل واقعة وهو اساس لتصور درامى سببى فى بناء حبكة القصة او الرواية ، وذلك فى مقابل المعانى والماهيات القصوى الابدية ، المستقلة عن السير الجزئى للزمان فى التصور التقليدى فالصراعات الفردية الاجتماعية كونية دائمة الحضور تدور فى نظام ثابت متناغم تنتمى اسسه الى جميع الازمان .

وفى بدايات السرد القصصى الحديث فى مصر كانت محاولات المصالحة بين الذات الفردية الحرة وقيم الجماعة المتآلفة نغمة اساسية لا تخطئها الاذن . فالايديولوجية البورجوازية فى مصر فى قيادتها لحركة التحرر الوطنى لم تكن مسكنا مقصورا على افراد طبقة واحدة ، بل حاولت ادماج الطبقات الشعبية فى تصورها للعالم .

وقد نجحت فى أن تربط داخل تصورها رؤى مختلفة كانت موجودة لدى الطبقات الشعبية المنتمية الى انماط تاريخية قديمة مثل الفلاحين والحرفيين . واستطاع النمط البورجوازى للفردية أن يمتص امتصاصا جزئيا بعض مضامين النمط التقليدى وأن يقوم بتحييدها وتحويل التناحر الى اختلاف بسيط .

الحساسية الجديدة :

ولكن فى الستينات بدأت الصورة فى التغير . واصبح بسطاء الناس الذين يدار الحكم باسمهم مبعدين عن المشاركة فى صنع مصيرهم . وكان الجزء من الحركة الوطنية الذى انفرد بالسلطة ويتحدث باسم الطبقات المتآلفة يهشم تماسك

الطبقات الشعبية ليحولها الى أفراد متناثرين ، وأنفار فى طابوره الواحـد . وليس هنا مجال الافاضة فى ذلك وقـد قلنا فى مجال آخر ان الاغتراب فى قلب واقع كان قبل ذلك وعدا بالتحقق وتحت سياط قوى كانت قبل ذلك أملا ووعدا بالتحقق جعل تناول الكتاب الذين يطابقون بين أنفسهم وبين بسطاء الناس يتم وفقا لمصطلحات ومفهومات غير سياسية على نحو مباشر . انه وقت لم تكن فيه الثورة ممكنـة بـل كانت ستختلط بالثورة المضادة من وجهة نظر الـكثيرين . وأصبح مجرد مواصلة « الحياة » مشكلة مضنية ، وكـان كتاب الهتاف والتصفيق والجرارات ملفوفة القوام والنقابات البيروقراطية المعينة وتعاونيات السماسرة وأغنيـاء الريف قد تحولت السياسة عندهم الى أعمـال ادارية وخطط محسوبة توجه مغامرات التسلق وتجميـد الواقع وتزييف صورته . لقد كان فى المسار المتناقض للمسرح الاجتمـاعى ما يغرى بنزع الطابع التاريخى عنه وقبوله كواقع طبيعى ، ولم يعد الواقع كتاريخ تصنعه الارادات المتآزرة مرئيـا ظاهرا . وكان الاغتراب يمزق الاواصر بين العام والخاص ، بين الاجتماعى والفردى بين الفكرى والحسى والوجدانى . وقد عكف كثير من كتاب الستينات على تصوير العـلاقات الممزقة بين العالمين الذاتى والتاريخى وعلت صرخاتهم فى وجه محاولات افراغ الاثنين من المعنى . ولاول مرة تبـدد عند كتاب الستينات الوهم الايديولوجى المبرر تاريخيا ، وهم امكان المصالحة بين الفردية والبورجوازية وفردية الجماعـة المتآلفة ، وهو الوهم الذى كان سائدا قبلهم والذى أصبح لاول مرة هو الايديولوجية المعتمـدة للاشتراكية الاميرية.

وكانت صرخة مبروك فى قصصه صادرة عن حساسية جديدة ترتبط على الرغم من تفردها بحساسية مشتركة فى

نيار جديد للكتابة القصصية . ونعنى هنا بالحساسية شيئا يختلف عن مواضعات الكتابة وعن الايديولوجية السياسية بل ما يعنيه رائد الاشتراكية العلمية بها ، فالمرء ينعرف على ظاهرة ما بوصفها تجليا لخصائص الانسان الجوهرية وبكل حساسيته ، وهكذا يتحقق الانسان داخل العالم الموضوعى ، لا فى فعل التفكير فحسب بل بكل قواه الحسية. . .والانفعالية ايضا . ولكن قصص مبروك جميعا قصص عن عدم التحقق. انها تعبر عن حساسية دائرة معينة فى الحياة الشعبية تختلف عن دائرة حياة الطبقة العاملة . وتلك الدائرة تعانى اضمحلالا وتدهورا . ان أفرادها هم سكان العوالم الوسطى وبالتحديد مستوياتها الدنيا بين القمة والقاع ، بين الملكية والعمل . وهم ينتمون الى أنماط عتيقة وانماط شديدة العصرية فى نفس الوقت . وتاريخهم المعاصر ملتقى تيارين متضادين، تيار يقوض أشكالا قديمة منها أو يخضعها أو يمحوها وتيار آخر يعيد خلق اشكال جديدة منها وينتج لها أماكن وادوار ووظائف مستحدثة ثم يهدمها . فلعبة النهاية والبداية دون توقف هى نمط وجودها . ولا تتحدد سيكولوجية تلك الشرائح الوسطى ولا ايديولوجيتها بجوهر دائم يواصل الحفاظ على ماهيته ، بل بعلاقاتها المتناقضة بالطبقات الاخرى ، وبالمستوى الفعلى للصراع الاجتماعى فى اللحظة المعينة ، وتلك الشرائح الوسطى تتضمن حضور الطبقات الاخرى داخلها حضورا سيكولوجيا وايديولوجيا لافرادها أنهم يقيمون فى منطقة احتدام وذوبان الصراع الاجتماعى، فى موقع دوران الافراد خلال عملية الحراك الاجتماعى هبوطا وصعودا بين الاغوار والاعالى ، بين القديم والحديث، بين الاسطورة التقليدية للمجتمع الابوى العضوى والعلاقات المتناسقة فى الانتاج العائلى وبين الاسطورة الحديثة عن الفرد السوبرمان بوعيه السعيد أو المقذوف به الى عالم

الوحدة والضياع . ان افراد العوالم الوسطى يبدون لانفسهم محلقين فوق المعركة الاجتماعية ممثلين للشعب والانسان . للاستمرار التاريخى والحقيقة المحايدة . ولم يكن مبـروك ينتمى الى ذلك التيار الذى ادمجته الايديولوجية المهيمنه . وتمثلنه على أساس من تحقيق أهداف جزئية منفصلة لبعض قطاعات الشرائح الوسطى بل كان ينتمى الى تيار معاكس يواجه الاضمحلال وفقد الحرية واخفاق الامال بالجملة . ونمت الحساسية الجديدة عند ممثلى هذا التيار فى الفكر والفن على اساس رفض تصور العناق الهادىء بين الطبقات المتناحرة على درجات سلم وهمى يصعده الافراد من الاغوار السفلى الى الاعالى بالجدارة والمواهب ، فمهما تتغير وجوه الافراد الصاعدين (وهم قلة ضئيلة) أو الهابطين يظل التـركيب الاجتماعى على حاله ، قمة متسلطة وقاع مستكين متساقط . ويرفض السرد القصصى العلاقات القديمة ولا ينطوى على حنين للرجوع الى انسجامها واتساقها رغم وقدة الحنين الى انسجام واتساق . ويرفض منطق الحياة اليومية فى اللحظة المعاصرة ، فالمعنى الانسانى الكلى بين مخـالب التمزيق والتفتيت ، ولم يعد السجن الايديولوجى للتجربة اليوميـة الضيقة التى يمارسها الفرد مركزا لحقيقة العالم أو حقيقة الفرد . ان انجازات الفردية البورجوازية لم يعد من الممكن الاحتفاظ بها وتطويرها فى اطار العـلاقات البـورجوازية التى أنجبتها ، فلابد من اطار آخر فى مجال الحلم ، ولابد من البحث عن خلاص . وفى قصة « نزف صوت » ذهب الشاعر المصرى الى لندن ، وهى مدينة مبان حجرية عالية وأضواء ملونة بناها الانسان وهدم نفسه « فالانسان سيظل قزما طالما هو يبنى خارج نفسه » . وقبل أن يصـل الى ذلك كان يحدث حبيبته الانجليزية بفرح عن أمه وأخيـه الصغير والناس الذين ستسعد بهم فى مصر . وكانت تصغى

كما لو كانت تسمع بابتسامتها . ويقول لها هـــذا أخى الصغير فتضحك وتعتصر اصابعه . وفى عينيها نسارعت موجات النيل تمرح بين ضفتى التيمز . الحلم المستحيل فى نطاق العلاقات المعاصرة بين الضوارى الاستعمارية والشعوب باتحاد نمطين من الفردية ومن العجب أن الاستاذ مقار فى مقاله النقدى يقتنص كلمات شاردة عن سياقها زاعما أن هذا الشاعر وهو يطابق بينه وبين كاتب القصة « يغزو لندن ويقتحمها — فى الخيال — بالسلاح الوحيد الذى ظل له ، فحولته كذكر » . لكن الشاعر فى القصة ، يسخر من سادة أساطيل الامبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس والذين علقوا فوق الشعب البريطانى « قفا الشمس» لان وجهها الحقيقى كان وحلا يخوض فى الليالى المهزومة ، فانتصاراتهم بالمقياس الانسانى هزائم لشعوبهم ، فالانتصار على انسان ليس سوى تأكيد الهزيمة » . فهو لم يذهب منتقما . وحبيبته الانجليزية أم طفلة ، أمله ، هى اكتمال وجوده ، نصفه الاخر ، وعلاقته بها علاقة امتزاج واتحاد ومشاركة تضرب حدودها فى الاعماق ، واستسلام متبادل وانتصار متبادل . ولسنا هنا أمام قصة مسرفة فى النزعة العاطفية عن حب صبى غض الاهاب ، يثقل الصغائر بمعان ضخمة ، ويأخذ مسائل عادية بجدية مأساوية مفرطة تدعو الى السخرية ، فالسرد لا يوحى بقصة عن أفراد فى حياة يومية بل بتصوير مجازى رمزى لصراع محورى فى الوضع البشرى ، بين أشواق الانسان متواصلة الحلقات وبين منطق واقع معاد ، وهو تنافر ينتهى فى جميع القصص عند مبروك باحساس عام بالعزلة الخانقة ، ماعدا قصة « عطشى لماء البحر » التى كتبت بعد فترة انقطاع طويلة مرت على كتابة القصص السابقة . فما يقدم لنا ليس اجزاء من تجربة يتبع لاحقها سابقها فى تعاقب سببى ، بل نماذج من المعانى

المتقاطعة مستقلة عن التعاقب الزمنى والتجاور المكانى فى ترابطها ، ولا تتواشج فى وحدة الا فى آن واحد ، فالسرد يقدم لنا صورة كلية تسهم مكوناتها فى تقديم مركب انفعالى فكرى متواقت . فالنهاية مثلا لا علاقة لها بالحسم وهى لا تحسم شيئا وتترك الشخصية فى مكانها الذى التقينا بها فيه منذ البداية .

ومن القول المعاد الكلام عن تغير مواضعات السرد ورفض الحبكة التقليدية القائمة على السببية بين البداية والوسط والنهاية والخروج على تصور الزمن الذى يسير فى خط مستقيم . ولكن ما يجب تأكيده هو ان تلك المواضعات التى نصفها بأنها تقليدية كانت هى السمات الفارقة للقصة القصيرة الحديثة وللرواية بالقياس الى أشكال السرد القصصى القديمة . وتلك المواضعات قائمة على افتراض ايديولوجى مضمر ، هو الزعم بأن « وصف » حياة الافراد فى واقعها الجزئى اليومى يقدم حقيقة كلية ذات طابع انسانى اجتماعى عام . وذلك هو نفس الوهم الكامن فى الايديولوجية «التجريبية» على وجه العموم ، « فالقانون » عندها متضمن فى كل ظاهرة جزئية على حدة على نحو ما هى معطاة فى الخبرة الفردية ، ويمكن أن يستخلصه منها الفرد الذى قد زود فطريا بكل الوسائل التى تمكنه من ذلك ويناظر ذلك الوهم وهما أساسيا آخر فى الحياة الاجتماعية ، وهو أن يدا خفية تحقق التناسق بين سببية الافعال الفردية القائمة على المصلحة الذاتية والسببية الشاملة لتحقيق مصلحة المجتمع الذى يسير دائما الى الامام . ولكن ما كان وهما مبررا تاريخيا أصبح الان اكذوبة رخيصة . وهنا نجد أزمة السرد القصصى ، فهو لم يعد تطابقا حافلا بالمعنى بين البعد الفردى والبعد الاجتماعى . انفصل الزمن الفردى عن الزمن الاجتماعى ،

واصبح من المستحيل التعبير عن مؤسسات وقوى مجتمع ينظم نفسه آليا وفقا لجهاز الثمن فى السوق بلغة التحقق الفردى والفعل الحر أو التجربة الشخصية فالفرد سلعة تحقق فى مكان مستأجر بزمن مستأجر يعيش حياته بلغة المواصفات القياسية ، لان العواطف اصبحت سلعا تبادلية أيضا كما يقال ، وثمة بعد ذلك كله قلة ضئيلة تحكم المصير .

ولكن قصص مبروك — ويشاركه فى ذلك بعض كتاب القصة المصرية قد تدفع الى الظن بأنها تحكى حكاية واحدة عن استكشاف وارتياد حالات نفسية عند فرد معزول محاصر فى كهفه السيكلوجى ، واقف عند أوضاع ساكنة متجمدة وقد تبدو تلك الذات بعناصرها المفككة متجاورة مع ذوات مضمحلة متداعية أخرى ، وهى ذوات يتصادف أن تتصادم دون أن تلتقى أبدا ، ويبدو عالمها عالما للتشيؤ تحكمه قوى غامضة كأنها طبيعة الكون . فالواقع كالذات قد خلا من الطاقات والقدرات الحية .

الا أننا فى الحقيقة لا نلتقى بالزى الرسمى الموحد للعدمية المعاصرة ، وهو زى من قطعتين ذاتية زائفة وموضوعية زائفة . فالتشابه بين مبروك وبين كتاب العدمية ينحصر فى الموضوعات لا فى مبادىء التشكيل . فالاضمحلال والانسحاق والعزلة سمات موجودة فى الواقع الفعلى . وقصص مبروك لا تقدم عالما قد انهار أو النتائج الميتة لهذا الانهيار . وهى لا تتعاطف مع الانحطاط والشحوب والذبول والموت . انها على العكس تحتج على كل ذلك وتصرخ فى وجهه باسم قيم تبتعد كل الابتعاد عن العدمية .

المـــــأزق :

والقيم المعيارية التى يحكم السرد باسمها . ليست غيم الفـــردية العمالية التى مازالت أمـــلا . ولكنها قيم مستمده من عناصر متناثرة من فردية الجماعة المتآلفة وعناصر متناثرة من فردية البورجوازية ابان صعودها وتحسس هائم على وجهه لمبدأ ترابط جديد غير مبادىء الترابط التى دفعت الذات والعالم الى التدهور والاضمحلال . لقـــد كان مبـــدأ الترابط فى الفردية المتآلفة القديمة قائما على تدرج المراتب (الهيرارشية فى الارض والسماء . فالارض يملكها هرم متصاعد فى قمته سيد مطلق السيطرة ، له مكانة الاب نهبط منه درجات من الحقوق والتبعيات حتى القاعدة . ورات الوثنية الطبقيـــة فى السماء مثل هذا التدرج . وكانت العائلة والطبيعـــة وجسم الانسان وروحه ترديدا لذلك التدرج . ونرى فى قصص مبروك رفضا لهذا التدرج القمعى فالسرد يصرخ فى وجه الاب المتسلط فى الارض والسماء (وليس ذلك مقصورا على مبروك « فصورة الاب » فى الادب المصرى كثيرا مـــا تتمثل فى تصوير جبروته والاحتجاج عليه أو فى تصـــوير تداعى مكانته القديمة) . ولكن ذلك السرد من جانب آخـــر ينوح على ما تركه غياب هذا الاب الخرافى المفارق . للعالم من خواء واختلال ، وياللخديعة لقد تعودنا على اعتبـــاره مبدأ الاتساق والانسجام ، يفيض به على كل المـــــراتب المتدرجة ، وعلى أجزاء كل مرتبة وفى السرد تظل الرغبـــة اليائسة فى الخلاص مدركة بلغة شظايا تآلف كونى انسانى يكاد يضيع الى الابد رغم مقاومة الصرخات والنـــداءات ، فالذات الشعرية لم تتكيف أبدا داخلها متسقة مع الهـــدم والذبول والموت ، ولم تتناغم الاوصال التى ظلت حيـــة مع الاشلاء التى سرقها الموت . وهناك احساس بالرعب ــ ربما

كان نضمينا لابيات الشاعر النمسوى « هوجو هوفمانستال »
— من الاشياء تتداعى ذاوية ، ومن ان تمسى « اناى » التى
كان يملكها صفل صغير غريبة عنى . كأنها كلب صغير .
وارضنا تدور بعيدة عنا ونحن نهوى فى الهوة السحيقة ،
وما من أرض نحتها . وفى الهوة لا احد ينجد احدا لانه
لا أحد يملك ارضا يقف عليها . فكيف وهو يهوى سيثبت
نفسه وينشل طالب النجدة وذلك بفرض انه استطاع أن
يعبر المستحيل ويوقف تهاويه ليدير اليه راسه وينصت الى
صرخاته . سقط صوت الانسان وبعده صوت كل اشياء
العالم ، ولكن هناك نغمة أخرى مصاخبة فى هذه الارض
الخراب وفى كل هذا الانطفاء القدرى الغامض . الناس لا
تهدأ أبدا . ربما تسكن للحظة ولكنها سرعان ما تعود للحركة .
وهى تحرك أطرافها دون أن تغادر مكانها بينما تصدر أصواتا
غريبة متباعدة وكل منهم يصدر صوتا وحده . ان هؤلاء
الافراد يمرون قريبين جدا من وجهى كما لو كانوا لا يحسون
بى ، شىء (أو فرد) منهم يجرى وراء شىء آخر . يشتبكان .
يتصارعان . شىء يلقى على الارض متأوه فى استسلام
(العناق الجنسى) ينهض الشىء الاخر ويبصق عليه ثم
يمشى مبتعدا عنه . ولكن الشىء الراقد على الارض لا يقول
كما فى الارض الخراب أما وقد بدأ فالحمد لله على انه
انتهى . بل ينسحب وينزوى ويبدأ فى الانتفاخ . ويصدر
أنينا ويظهر من بين ساقيه المرفوعتين شىء صغير جدا .
وتمتد من هذا الشىء الصغير أربعة أطراف صغيرة جدا
ورأس . ويجرى نحوى صارخا مادا يديه : أبت اعطنى
خبزا .

بل ان الام الارض تضاجع أى رجل ، وغشاء البكارة
يتنحى لكل غاز طالما انه سيأتى بالطعام . وتلك النغمة

المصاحبة هى نغمة مملكة الضرورة ، الندرة القاسية والفاقة ، الخبز الذى يأكل الناس المبعثرين المتناحرين ، مملكة ما قبل التاريخ الحقيقى للانسان ، مملكة او ممالك القدرة الضئيلة على الطبيعة والاستغلال والتناحر .

وتمشيا مع ذلك نرى قصص مبروك تنزع المعاناة الشخصية وحلم التحقق الشخصى من دائرة الفرد وترفعهما على نحو مباشر الى دائرة الكلى الاجتماعى الكونى معا . ولا نرى فى تلك القصص الحياة اليومية حاملة دلالتها او متحركة بسببيتها الخاصة بل بالمعنى الخفى للعالم (او غياب واضمحلال هذا المعنى الخفى) . فالافعال اليومية المنكمشة الى اقصى مدى تعبيرات طقسية مجازية عن معان علوية أصابها الفساد بفعل الخديعة والخيانة فى عالم يحمل وجه يهوذا متنكرا فى بريق ثلاثين قطعة من الفضة . وتلك المعانى العلوية باطنة منذ البدء فى الاصول والجذور ، وهى على الارض كما هى فى السماء . والحركة العامة فى هذه القصص هى حركة انهيار المعنى المتعالى فى تضاد مع حركة « الخلاص » ، ولكن الخلاص القديم محاط باليأس فالسماء خاوية مظلمة .

وسيعاد صلب كل مسيح . أما الخلاص الذى يشتاق اليه السرد القصصى فليس قائما على منطق تناسق بين مراتب فى هرم من التبعية ، بل على منطق تناسق بين عناصر متساوية فى المرتبة تحيا فى دوائر متحدة المركز . وفى هذا المركز نجد الفرد الانسانى الحر ، ممثل الانسانية جمعاء فى يوتوبيا الملكية الصغيرة والعائلة النووية بعد انهيار العائلة الممتدة الابوية وعناصر هذا الخلاص المستحيل صور شعرية مجازية تحلق فوق الوقائع الجزئية والتحولات

التاريخية وتبدو كما لو كانت تنتمى الى جميع الازمان . وبطبيعة الحال ستكون صورا « عضوية » « حية » «حقيقية» فى تضاد مع «الشيئية» « الالية » « الزائفة للحياة المعاصرة» ولابد أن تكون هذه الصور مسرفة فى نزعتها التبسيطية ، فخطوطها العامة هى البراءة والنقـــاء والخصب والفيض والتألق ومعادلاتها الانسانية هى الطفولة والكبارة وعنـــاق الامومة . وتلك النزعة التبسيطية واسعة الانتشار فى قصصنا القصيرة . كما أن السرد عند مبروك لا يتدفــق بحنين الى الطفولة باعتبارها مرحلة فى مسيرة شخصية محددة . بل الى الطفولة على اطلاقها ، الى جذر الوجود وبذرته واصله قبل السقوط . ونجد الام الارض ، الانوثة الخصبة بعذوبتها ورقتها ، الينبوع الاول المنبثق بالحياة ، وتتفرع عنها الحبيبة العذراء ، النقاء الاصيل للوجود ، جذوة الرغبة وهى تتنفس فى فيض من الهواء السخى ، ولانها فى جدائل شعرها حينما تبتعد تترك طوفانا حارقا من الجدب .

ونلاحظ أن تلك الصور الاساسية جميعا ـــ وهى حالة للروح الفردية ووضع كونى فى نفس الوقت ـــ تتألف من اضفاء الحياة الانسانية على عناصر طبيعية « أوليـــة » ، محدودة العـــدد الى اقصى مدى ، هى الطين والمـــاء والهواء والنار وتحولاتها المتبادلة . وكأننا نصل مع تلك العنـــاصر الى المبادىء الاصلية للوجود الكونى والســـيكولوجى فى نفس الوقت . وهنا لن نجد اهتماما بالتشخيص السيكولوجى للفرد بل سنجد ابرازا لاليات نفسية باعتبارها ظواهر كونية، وسيكتسب كل شىء دلالته من المستوى المجازى . وسيحدق بنا خطر رفض التطور الاجتماعى التاريخى أو العجـــز عن رؤيته . وسيحدق بنا خطر آخر هو اغفال « الطبيعةالثانية» الطبيعة التى شكلها التاريخ بالعمل الانسانى ، وهى الجسم

غير العضوى للانسان ، أى عالم الثقافة . (الحضارة المادية والعقلية ، والوقوع فى وهم ان الفرد يتعامل مباشرة مع السماء والجبال وأعالى البحار لا من خلال « الطبيعة الثانية » . وسيترتب على ذلك نزعة ساذجة بدائية تقع فريسة للايديولوجية السائدة ، وتعتبر الوضع البشرى غير قابل للتغيير . وحينما نتكلم عن التطور الاجتماعى التاريخى فى الادب اى من زاوية الذات الانسانية فى كليتها وتعدد جوانبها ، اى من زاوية طاقات الانسان النوعية الكلية الخلاقة ، لابد من الاشارة الى الطابع المتناقض لتطور تلك الطاقات فى الاشكال التاريخية المتعاقبة لاستغلال الانسان للانسان . فالفردية البورجوازية لم تكن تطورا الى الامام على طول الخط وفى جميع النواحى . فهى بالاضافة الى انجازاتها الثمينة كانت نكسة فى مجال تكامل الفرد وعلاقاته ...جمة . ولكن بذرة الحقيقة فى الاسطورة الرومانسية عن الحياة الفلاحية أو الطائفة الحرفية (حيث كان الفرد يبدو متطورا فى اكتمال فى عالم أصلى من البكارة والنضارة والتآلف داخله وخارجه مقابل الابتذال السوقى والتمزق والخواء المعاصر) لا تصلح مصدرا لشعر المستقبل . فالعلاقات الضيقة القديمة (بما يلازمها من عجز الانسان أمام الطبيعة فى الملكية الصغيرة) ليست اطارا ملائما لتنمية الثروة الانسانية فى عالم اليوم . والثروة الانسانية هى كلية الحاجات والطاقات والقدرات ، للأفراد . هى التطور المكتمل لسيطرة الانسان على قوى الطبيعة ، طبيعته والطبيعة الجامدة غير الانسانية تطويرا يصبح هدفا فى ذاته . وهو هدف يتجه نحو وضع لا يعيد الانسان فيه خلق ذاته على أى صورة معينة متحجرة التحدد ، بل ينتج كليته الانسانية وشموله الانسانى ، ولا يستهدف أن يظل شيئا شكله الماضى فحسب بل أن يكون فى مسار صيرورة مطلقة

(التشكيلات الاقتصادية السابقة للراسمالية . لورنس آند ديشارت لندن ١٩٦٤ ص ص ٨٤ — ٨٥) . فاستعادة الناس للسيطرة على مصيرهم من قبضة علاقات الاستغلال هو الذى يمكن من ازدهار تطور الفرد على نحو كلى متعدد الجوانب ومن ازدهار تنوع ضخم فى « الحواس المثقفة » من خلال استخدام الوسائل المتطورة جميعا .

اللغة القصصية :

ونعود الى قصص مبروك . ان السرد فيها لا يحكى عن تعاقب أحداث بل عن أنماط من المواقف الاساسية ، ايقاعية التكرار تتواشج فيها مراحل عمر الانسان ودورات الطبيعة . ولن نجد خطوطا خارجية محددة ولا تنمية خطية ، بل توزيعا للصور الاساسية تبعا لعلاقات التماثل والتضاد فالازدهار والتألق والنقاء والعناق مقابل الاعتام والدنس والنبذ ، وتلك الصور ليست علاقات بين معطيات متجاورة فى الزمان والمكان بل هى استعارات تنتمى الى مستويات مختلفة من التعميم . وتوحى التجريدات المشخصة التى تحشد تجريدات هائلة فى تفصيلات وايماءات صغيرة عادية بأن السرد واقع فى مد التاريخ وجزره ولا يحكى عن فرد فحسب. والحركة تتجه الى تغليب صور الهمود والنضوب . فالتألق والازدهار لن يتحققا الا بخوض معركة مع جيوش العدو حليف الموت . « وما من حرب يمكن كسبها دون أن تخاض حتى نهايتها ... ولكن عليك الا تحارب وانت مثقل بصور الهزيمة » (عطش لماء البحر) . وقد كانت صور الهزيمة غالبة . فكيف تلتقى الايدى وتتشابك السواعد ؟ وهل يمكن لعناق الشاعر محبوبته أن يكون رمزا يستوعب صحوة قوى اجتماعية وفاعليتها المنظمة الواعية ؟ . ان الحياة

المنزلية الضئيلة البسيطة ، الهانئة الهادئة ، عش البلبل والوليف والأفراخ والوردة كانت دائما ملاذا وهميا ومهربا واقعيا فى الايديولوجية البورجوازية . وقصص مبروك تصور ان تلك الحياة ليست بمنجاة من التيارات والاعاصير التى تعصف بها ، ولكنها تعتبرها القش الناعم للعش الذى تذروه الرياح مقياسا لحركة الريح .

ان امنية التواصل والتحقق يتعاقب توهجها وانطفاؤها فى تنويعات دائرية لاوضاع ساكنة ، أوضاع هى لحظات كثيفة تنصهر فيها المعانى المجازية فى موقف واحد موير بالحركة وان يكن هو بلا حركة ، وتلك التنويعات للاوضاع هى أشكال نمو للصور الانفعالية ودبولها ، تدفقها وانحسارها احتدام النزاع بين تلك الصور الانفعالية ومواقعها النسبية ، والدرجات المختلفة لنصوعها ودكنتها ، ولا تتألف من خطوط خارجية .

ولذلك تجىء اللغة القصصية ساحة صراع بين الأطر الشكلية والقوالب الاستدلالية المتداولة والصيغ اليومية المكررة وبين حدس مباشر للاعماق فى لغة تصبح جزءا من باطن الوجود النفسى والكونى ، هى لغة النبع وأمومة الارض وتأجج النار والتألق والشفافية والانطلاق وهى كذلك لغة النضوب واليتم والرماد والكدر والقتامة والنزف .

ويحاول السرد تحقيق ذلك بأن يحاكى « اللغة » التى ينطق بها الجسد الانسانى وتنطق بها العناصر الطبيعية التى تماثل الجسد الانسانى فى قدرته على الافصاح ، لغة الاستجابة للموقف فى انتحاءات وحركات وهيئات بسيطة

تبدو امتدادا مباشرا للكائن ، كما تصبح الالوان والصفات الرمزية مثل الزرقة أو العذوبة أو النقاء جواهر واقعية فردية . ويحاكى السياق بالاستثارات الحركية الصوتية المباشرة ، لغة الصيحات والصرخات والبسمات وتساقط الدموع وتقطيبات الوجه واليد الممدودة بالرجاء والاصابع التى تتفتح لتلتقى بأصابع اخرى ، وكذلك الخرير والدوى وعزيف الريح .

ان وجه العالم مغطى بعلامات ناطقة ، وتكشف الاشياء عن قواها الداخلية بعلامات من تشابه وتعاطف أو تغاير وتنافر على أساريرها الخارجية ولكن الطريق الى العلامة وعر متعرج ملتو ، وما أكثر ما يكون التعبير قناعا ، والكلام صمتا فى العالم الحرباء الذى يستحيل طينا بالمطر وتلالا جدبة بالقيظ ، وقمحا أو قطنا او توتا حسبما ينافق الفصول!! واستجابة العالم لحناننا كرأس طفل قد تكون استجابة رأس عاهرة لا نعرف الى الحنان سبيلا . وثمة محاولة يبذلها السرد لعبور الهوة بين حدود اللغة وحدس الوجود ، وللافصاح عن معنى الاوضاع الانسانية التى تعجز الكلمات عن نقلها . وهل يستطيع حبر الطباعة أن يكون أكثر من حبر طباعة !! بل يزعم السرد أن الطفل فقد براءته مع تعلم حروف الكتابة لغة الاكذوبة والنفاق الرسمى المقنن وتزييف العلاقات . وان مساحات « الفراغ» فى السرد والتى يتركها شاغرة بين قوسين ، هى المسافة بين المسميات الجاهزة والمعانى المعدة سلفا وبين الحقائق النهائية للوجود ، بين قول قاطع التحدد وبين الالتباس والحيرة فى صميم التجربة والوجود . ولكن « الفراغ » الذى يتمتع بدهاء لا يزيد عن دهاء الاطفال فى لعبة الاستخفاء يعرف السرد مكانه بالضبط ويحدده بقوسين !! أيعرف الشاعر حقا عنوان التجربة

المراوغة التى تستعصى على التوصيل بين التجارب التى استطاعت اللغة اقتناصها ؟

لقد تخلى الكاتب فى آخر قصصه عن الاماكن الشاغره التى كانت تبدو تلعثما او اخفاءا للكلمة المناسبة التى يمكن للقول الاستدلالى ان يستنتج نطاقها .

ونلاحظ أن الصرخة والضحكة والزفره وما هو شبيه بذلك تـرد فى اطار غنـائى موسيقى من توكيد النبـر أو خفـوته فهنـاك النـداء والاسـتفهام وارتفـاع الصوت بهما ، ثم التحول المباغت عن انتظار الاجابة وهناك التماثل الايقاعى للكلمات . والتشابه او الاختلاف فى طول العبارات وتركيبها . لذلك نجد « صوت القول » موضـعا للابراز المنفصل الى جانب مدلوله الاشارى . وكل ذلـك يستهدف وقعا مباشرا للصياغة اللغوية مماثلا لما تحـاول نقله ويعجز عنه القول اليومى والقول الاستدلالى .

فالنموذج اللغوى المفترض هنا هو نموذج لغه كلماتها هى عين التجربة التى تفصح عنها وهى عين الاشـياء والحركات فى الانفعال المتجسد ، انها لغة تفرعت عن نموذج أصلى وحداته وسائل جسمية عضوية يمتلكها كل فـرد على نحو مباشر . حركات لليدين والراس . وتغيرات فى أوضاع الجسم واصوات حيوية مثل الصرخة والزمجرة والتنهد . لغة الحياة قبل أن يصوغها التاريخ . وما أقل ما نجـد النموذج الاخر للغة الحياة الواقعية أى تراث التغـيرات المتعاقبة فى بنية التواصل ، لغة الفعل الانسانى والتاريخ . ان تلك « اللغة » الاخرى لم تبدأ بصرخة أو صيحة أو نداء بل بالعمل الاجتماعى المنتج الخلاق الذى طبع منطقـة

على الادوات والوسائل وموضوعات العمل ونتائجه ، وكلها ليست اشياء «طبيعية» بل تجسيدات لانماط مشتركة من الفعل والفكر (ويشمل الفكر هنا الحس والانفعال) . لذلك ليست لغة التواصل الانسانى كلمات فحسب . بل هى لغة عمل وفكر مجسده كذلك فى الحجر بيوتا ومدنا . وفى المدن أدوات وآلات ومنتجات . وفى طرائق السلوك نظما للعائله والحياه الشخصية وأشكالا لممارسة الحياة السياسية . وفى مواد الفن ووسائطه (وتدخل اصوات اللغة ضمن تلك المواد كتبا ولوحت وتماثيل ومعابد وقطعا موسيقية . والحديث هنا عن اللغة ليس حديثا عن معجم المفردات وقواعد التركيب بل عن نسق مفتوح متجدد من الرموز . ورمزية هذا النسق هى « ذات » الفعل الانسانى الخلاقة . وموضوعه (الذى لا يجده ذلك الفعل جاهزا ابدا ، فى نفس الوقت . فتلك « اللغة » قوة توحيد وصراع وتنظيم للافعال واعادة لتنظيمها على أسس جديدة ، وتوجيه للفاعلية وخلق للوعى ولانماط الاستجابات النفسية .

ونجد مبروك الان يحتفى فى كتاباته النقدية بالواقعية الاشتراكية أى بالتفاعل بين لغة الحياة الواقعية والحياة الواقعية للغة واللغة باعتبارها واقعا .

ونرجو أن تكون رحلته الطويلة فى البحث والمعاناة قد وصلت به الى منعطف جديد يكون بمثابة الطريقةالصحيحة لالقاء السؤال عن كتابة شعر المستقبل .

تصـــــويب الاخطـــــاء

نعتذر للقارىء عما وقع من اخطاء . حاولنا فى هـــذا التصويب تداركها فاوردنا السياق الذى ورد فيه الخطـــأ بالبنط العادى والتصويب بالبنط الاسود راجين القـــارىء الـــكريم ان يثبت ذلك فى مكانه من الصفحات قبل ان يبـــدا قراءته لهذا الـــكتاب .

الصفحة	السطـــر	التصويب
١٠	١٧	(**واختطف** أمل لعبته)
	٢١	(**برق** فى ملامحك قوسا دهشة)
١١	٢٠	(واغرقتنى **بضحكك**)
١٣	٩	(لـــكى أتلفت **جيـــداً**)
١٥	٨	(والقلب لايكف عن **ضخ** الامواج)
٢١	٢١	(والموجات خلفك **لا تتوقف عن الانيان بك وانت تفـــالبين الابتســـامة حتى تعطيها للشفتى**)
٢٥	١٠	لأن أمل **صرخ**
٣١	١٦	لأننى **أكره** أصوات الندب الصارخة .
٣٣	٢٥	رأيت **عيونهن وهى تلد**
٣٤	٢٠	وأهرب **من** التحـــديق
٣٨	٩	أن يتلاشى **دفعة** واحدة فأهوى
٤٩	٢	**صراعا** عاشقا
٥٢	١٠	أزرع **وجهك** بين حنانهما
٥٤	١١	وتدفن جثث **كل** رغباتها **معها**
٦٤	٨	**عل** ذلك يوقف هذيان الرعشة
٦٤	١٢	كل **أرجائنـــا**
	١٧	رايتها **مطفأة** الانوار
٦٦	٢٥	وكلما نزفنـــا **عمرنا** استطالوا

الصفحة	السطر	التصويب
٧٤	١٤	**لم** جرى كل ذلك ؟
٨١	٢٧	النائمة **المتئدة** الواثقة من **نهايتنا** .
١٠٢	١٠	**كان** وجهها يبدو .
	١٣	شدنه هى الاخرى **على** اصابعى .
١١٤	١٣	بدات **تزهر** موتنا .
١٢٣	١	يطوقونها بنباتات الصبار .
١٢٩	٨	وعلو **جبهتك** لتنكفىء .
١٣٠	٨	رفعت راسى **المنكفىء** بلهفة .
١٣٢	٨	فاذا هما **ترتعدان** .
١٣٧	٥	كأمواج بحر **تقضم** لجام شواطئها .
١٤٠	١٥	والناقدة السوفيتية هنا متضامنة مع الكاتب المصرى شفيق مقار الذى كتب مقالة تحليلية عن مبروك فى مجلة الطليعة القاهرية (**أغسطس** ١٩٧٢) **ومع الدكتور عبد الحميد ابراهيم فى مجلة المجلة القاهرية** (ابريل ١٩٧١).
١٤١	٢٠	**والصيفة** الناجزة .
١٤٤	٢٣	المثل الاعلى مستبدلا فى **حياة** ممتعة .
١٤٥	٣	وشخصيته نواة **فى** علاقات اجتماعية.
١٥٠	٢٣	فاعلية تستغرق فيها **بكليتها** كانسان متكامل .
١٥١	٢٠	**الطبيعية** المتآلفة .
١٥٢	٣	معان متعالية .
١٥٣	٢٥	الوحيد بطبيعة الحال .
١٥٤	٢٥	الزمن الواحد **ذا** الطبيعة الواحدة .

في مطبوعات النديم القادمة :

من أعمال : أجوستو رووا باسطوس (باراجواى)

الطائر الطنان

قصص قصيرة

ترجمة : أحمد حسان

***

النذر

أشعار بالعامية المصرية

اسامة الغزولى

***

مراسلات النديم : الاسكندرية .

ص . ب : ٤٠ بريد السراى

الفهـــــرس

رسم الغـــلاف والرسـوم الداخليـــة
للفنان السكندرى : **على عاشـــور**
تصميم الغـــلاف : **عبد العزيز جمال الدين**

رقم الايداع ٨٣/٥٣٠٦

مطبعـــة
مؤسسة يوم المستشفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ـــ القاهرة



- محمد ابراهيم مبروك
- ولد فى أول ينـاير ١٩٤٣ بقرية طملاى منوفية . مصر .
- ليسانس آداب تاريخ . جامعـة الاسكندرية
- نشر له يحيى حقى قصته الاولى : ((نزف صوت صمت نصف طائر)) بمجلة المجلة ((أكتوبر ١٩٦٦))
- شارك فى هيئة تحرير ((جاليرى ١٩٦٨))

وتأسيس جمعية ((كتاب الغد))

- نشرت أعماله فى مجلات : المجلة ، جاليرى ٦٨ ، الفكر المعاصر ، أدب الغد ، مواقف التى يصدرها أدونيس .
- يشارك فى اصداركراسة ((النديم)) الثقافية ((غير الدورية))
- يعد كتابا عن قرأءته لماركيز بعنـوان : ((جابرييل جارسيا ماركيز : كاتبنـا))

الثمن ٥٠ قرشا

